زيد الشهيد
الليلُ
في
نُعمائِه
رواية حزينة جداً.. جداً

الليل في نعمائه

٢

الكتاب: الليل في نُعمائِه
المؤلف: زيد الشهيد
الطبعة: الأولى ٢٠١٦
ISBN: 978-9933-581-13-8
الإخراج الفني: دار أمل الجديدة
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٢٥٧٨ لعام٢٠١٦

سورية -دمشق
جوال ٠٠٩٣٩٣٢٤٧٢٠٩٦ -٠٩٣٩٣٢٠٠٢١٢٦ -
هاتف: ٠٠٩٣١١٢٧٢٤٢٩٢
E-mail:ammarkordia@yahoo.co

حقوق الطبع محفوظة: لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت (الكترونية) أو (ميكانيكية) أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو بخلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من المؤلف أو الناشر.

All rights reserved, Not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, Electronics, mechanical photocopying, recording of otherwise, without prior permission in writing of the publisher.

زيد الشهيد

الليل في نعمائه

رواية حزينة جداً.. جداً

"إنَّ كلمة الشاعر بسبب وقعها الصادق تحرك أعماق وجودنا."

غاستون باشلار

"أنـا وحـدي أُحـاورُكَ بـالحزنِ فـدعْ الليـلَ يُسـجِّل تأوهاتِنا."

زيد

(١)

رآها تقطع الدرب، مخلفةً الزقاق الذي أطلقوا عليه قبل خمسة عشر عاماً "زقاق بيت العمّة" وظل مقروناً بالاسم، لا أحد من المدينة يتنكَّر له فيستبدله.

رآها تتعثَّر في مشيها كما لو كانت تمرض أو تعاني من نزلةٍ تهزُّ كيانَها فتجعلها بلا اتزان.. كان قد رآها لأول مرّةً قبل شهرٍ فحارَ بوصفِها لمّا تبارى في ذهنه مِن تقديرِ جمالٍ أو تخمينِ رهافة... قال إنَّها فتاةٌ مُموَّهةٌ بألوانِ الطيف، فهي الالقُ. وقال هي غيمةٌ بيضاءَ تعومُ في بهاء شذري ناصع فهي بسمة من بسمات اللّه في لحظة رضائه. وايضاً قال مستدركاً يبغي الغاء القولين الآنفين: لا!.. لا !؛ هذه غزالة الوله تبحث عن فيضٍ لتحاوره بلغة الجمال، فهي من مخلوقات اللّه الحِسان... ومن جديد استدرك فقال: هي غزالةُ الوجع طعنها صيادٌ بسهمٍ نافذ وجَّههُ صوب قلبها فأبكاها وآلمها وعذبها ثم تركها لوعى تترجّى ضماد الايام كي تُشفى لكنَّها لم تتخلَّ عن البهاء.. المُهِم كان صُدم بجمالِها فشحذ المخيلةَ واستعطف العقلَ واطلقَ الكلمات؛ ولم

يكتشف إلا غب ايامٍ ألماً دفيناً تواريه خلفَ حُجب رموشِها النافرة، وأرته أنَّ الجمالَ الفوّارَ تُنقصُه لافتةً فصيحةَ الكلمات، وأنَّ هذا الجمالَ جريحٌ ولا من يُطبّبه ويشفيه.

تذكَّر يومَ وقفَ وراء منصَّةِ الالقاءِ قبل أسابيع ليُفضي بشِعرٍ هتفت له النساءُ وامتعضَ الرجال. شعرٌ حَشدَ له الصورَ واجَّج المفردات ثم تركه ينثال مطراً استخلصَه من مُهجِ وردِ الجوري المتوزِّع في حديقة بيته وقد فضَّله أحمرَ قرمزي لا ورديّاً شفّافاً يُهديه لملاكِهِ الساحر.. صوَّر بين ثنايا اسطرهِ المرأةَ ملاكاً؛ ورسمها فتاةً تحملَ مواصفاتِ الجمالِ الأيقوني.. يدعوها للتوهِّج، للتألق، للظهور، لتمزيق حُجب الخوف، لاعتلاء ناصيّة الرحيق.. يعطيها صفةَ القوارير التي ينبغي صناعة الرفق في التعامل معها والتحدّث اليها، مثلما يمنحها بيرقَ اشهارِ وجودِها قوةً فاعلة لا يكتمل بيتُ السعادة إنْ لم تكن هي دعائمُه واساسُه وواجهتُه الجميلة.

نهضت التي في المقدمة فصفَّقت بحرارةٍ ومودَّةٍ واعجاب وكانت بتنورة زرقاء وقميص ابيض يتهادى

عليه شعر بلون القهوة طويل وكثيف. قالت في سرها: انه يقصدني.. ومن الصف الثالث وراءها كان جمعٌ من فتياتٍ مراهقاتٍ يلبسن البنطلونات الجينز والقمصان المشجَّرة صرخن بصوتٍ واحدٍ دهِشةً: اللّه! ثلاث مرات وقد أعقبت كلمةَ اللّه عشراتٌ من علامات التعجّب، ردَّدنَ مع انفسِهنَّ: انه يتوجّه بخطابه الينا فيما هتفت مِن آخر الصالة فتاةٌ تجاوزت الثلاثين وقد تخلَّت عن وقارِها المتمثل بشالٍ تلفُّه على رأسِها بإحكامٍ وكوستم يخفي قوامَها حتى الكعبين الواطئين لحذائها الجلدي الخالي من بهرجة الطرازات الحديثة: يا هذا؛ ما الذي تفعله بنا.. ستقودُنا الى الجنون".. لا يدري الجالسون أنَّ القصيدة توجَّهت للغارقةِ في كرسيّها في زاويةِ القاعة وقد اتَّخذت مكاناً تخفتُ فيه الاضاءةُ وترى في التواري ابجديةً للتطلّع دون بهرجةٍ أو صراخ. وكان هو بين الموقنِ بأنَّها هي والمشكّكِ بغيرها.

نهوضُ النساء جعلَ وجوهَ الرجال تحمَر وتحتقن فينتفضون صارخين: ما هذا يا شاعر الحماقات.. انتَ تؤلّب علينا نساءنا.. نساؤنا حرثٌ لنا انّى شئنا.

كان بإمكانه حثَّ الخطى وايقافَها للاستفسارِ عمّا بها وفي ما إذا كانت هي الجالسة في أمسية الشِّعر وسمعت قصيدتَه التي تخصُّها، لكنه آثرَ المتابعة عن بعدٍ خشيةً صدّه بما لا يرضيه.. هي التي انتفضت مراراً فأسمعت غيره ممن كانوا يقدّمون العونَ لها اقتراحاً أو يسعون لقطعِ دابر ما سيؤذيها أو يتسبَّب لها بجرحٍ ستلقيه فوقَ ركامِ جراحِها التي كالجبل.. وحين استدارت وهي تدرك أنَّ وقعَ خُطى تلاحقُها وجدته يتحاملَ على نفسِه في البقاءِ بعيداً عنها. فقط سمعته يهمس: "حمامة.. حمامة، توقفي ارجوك".

تدري حمامة أنَّ قلبَه قصيدةُ ألمٍ.. وتُدرك أنَّ دواخلَه الآن مرجلٌ في أوجِ احتدامه.

-عُد ايها الشاعر.. عُد!.. ليس هناك ما تُعينَني عليه.

وانطلقت سهامُ الأسى من عينيها المشفقتين فأصابت قلبَه.. سمعته يصرخ آه فطأطأت رأسَها واطبقت أجفانَها.. عرفت أنَّها طعنته. فالشعراء يُجرحون برفيفِ رمش، والقصيدةُ جريحةٌ تهطلُ من شرفاتِ عيونهم. إنَّ الشعرَ بوحُ الروحِ، وإنَّ الشاعرَ لسانُ الألم مهما بدا سعيداً

يترنَّم بالسرور.

ــ عُد أرجوك..

استدارت صوب بيتِها الذي على بعد انعطافتين.

استدارت تسحب ذيلَ عباءتِها ليلتحق بالجسد؛ وتركته، وقد فشِلَ، في بحرِ الاسئلة يحاول النجاةَ بطوقِ اجابةٍ شافية يحمله إلى شاطئ الطمأنينة.. يتساءل: أأعاودُ اللحاقَ بها أم أستديرُ وأعودُ من حيثُ أتيت .. ماذا لو أسرعتُ واوقفتُها وهتفتُ بوجهها: ليس عدلاً أنْ تؤذينَ نفسَكِ بما لا وجوب له؛ وليس حقَّاً أنْ تتركيننني دونَ ايضاحِ السبب؟

ماذا لو هتف من بعيد يُسمِعُها: لا جدوى مما تتصورينه حلاً.. الحلول انتهت بنهايةِ الغياب؟ وكان يظن انَّها تحتفظ بحبٍّ لحبيبٍ رحلَ ولم يعد.. حبيبٌ من اولئك الذين يعطون وعداً ويتوارون عن احبّاء اصدقوهمُ القولَ فلا يعودون.

كانت قد استأجرت الدار بمفردِها وظنَّ الجيران أنْ ستلتحق بها العائلة. لكنَّ ذلك لم يحصل.. الذي حصل

انَّها كانت تخرج وحيدةً وتعودُ وحيدة. تلقي السلامَ الحميم على الجارات وتغدق على اطفال الزقاق ما تأتي به من حلوى تبتاعها عند التسوِّق. تماماً كما كانت العمّة قبل خمسةَ عشر عاماً تلقي السلام الحميم وتداري الاطفال في الزقاق فحقَّ تسميته بزقاقِ بيت العمّة.

توقَّفَ الشاعر!

توقَّفَ في سعيٍ لاتخاذِ قرارٍ قطعيٍ.. ما لبث أنْ استدار خائباً يُكرر الرجاءات فلا يَحظى بسماحةِ وجهِها وهدوءِ عينيها؛ لا.. ولا اشبع قلبَه الجائعَ بجوابٍ يجمع من الكلماتِ ما يعادل عسلَ الرِّضا ونميرَ ماءِ اليقين.. وكانت ثلّة فتياتٍ من وراء النوافذ العليا لبيوتهن تابعن ما حصل فتأسَّين وهنَّ يقبضنَ بشدَّةٍ على القضبانِ المعدنية العمودية التي تقطّعُ وجوهَهنَّ والانصاف العليا من اجسادهن.

ــ أرأيتِن؟ قالت فتاةُ احدى النوافذ تخاطبُ فتياتِ النوافذ الاخرى.. أرأيتنَّ كيف وكم من المرات يتابعها فتصدَّه ويلحقها فترجوه العودة؛ هذا الذي نريده فيأنف لمراداتنا وينهرنا لمجرد رغبة النظر اليه واستجداء بيتاً من

شعره في وصفنا؟

كسيراً عادَ الشاعرُ، خارجاً من الزقاق يراجع اجيالاً من المرارات.. يستعيدُ حُقباً من الوجع فلا يُبصر بستاناً للفرح. لكأن الحياةَ قصيدةُ ألمٍ لا تنتهي؛ أو هي الدنيا دارُ آخرةٍ تنتفي فيها كفّة الحق.

وكانت حمامة تخطو متظاهرةً بقوَّتِها؛ ضاغطةً بتجبّرٍ على خاصرتِها اليمنى.

"حمامة.. حمامة!".. وتردَّدَ الصوتُ صدى يجوبُ رأسَه.

استدار مُحبَطاً، جريحاً، متوجِّعاً. لكأنَّ قلبَه امتصَّ حزنّ قلبِها فأُشبِع به.. استدار وهاتفٌ يجولُ في دروبِ الروح يولولُ بترنيمةِ جزعٍ: هكذا هُم الشعراء؛ ألمٌ في ألمٍ، وجزعٌ يليه جزع. وليست للسعادةِ رقعةً في خارطة حياتهم.

تعرفه يتنغَّم بترديد اسمِها كعلاجٍ نفسي لموجوع بهمٍّ لا ينزاح.. تعرفه ما ازدادَ في كتابةِ القصائد هذه الايام إلا لأنّه وسطَ لواعجٍ تتناسل، وحريقَ قلبٍ يتعالى، وتتعالى على ايقاعه ألسنةُ اللهب وقعقعةُ ألمِ الجراح.

وكان صديقُهُ الرسامُ الذي قضى وايّاه عمراً من الصحبةِ ينتظرُه عندَ فمِ الزقاق وقد جرحت قلبَهُ شفرةُ حزنٍ حادَّةٍ على صديقه المُعنّى.

كانا شبّا سوياً في الزقاق الخارج الى الفرات. هناك اعتادا النزول الى النهر؛ يعومان مع جوقةِ الصِّحاب في ظهاري النهارات وعصرياتها ثم يعودان في حبورٍ يتبادلان اللقمة مُشتركةً... ولقد صعدا سوياً الى المرحلة المتوسطة يسوقهما حب الطبيعة (انسكب في ذائقة صديقه) ولذة الليل (صار ديدنا له يستعذبه ولا يفرِّط بعليائه).. وفي الثانوية كانا في مرحلة واحدة (وقد تعرت الموهبة على كلمات تتراصف لتكون بواكير قصائد لديه، وفتيات ألوان تستحم بالضوء فتستحيل لوحات فنية لدى الصديق) لكن في صفين مختلفين، ومتجاورين.. أما بعدَ الاعداديةِ فوجدَ الشاعرُ نفسَه يطرق ابوابَ كليةِ الآداب بينما اختار الرسامُ اكاديمية الفنون الجميلة.. هو يقرأ ألفية ابن مالك ويحفظها عن ظهرِ قلبٍ أمام استاذة الادب العربي عاتكة الخزرجي كاختبارٍ لاجتياز الكورس الاول من المرحلة الاولى بينما الرسام يدخل

قاعة الرسم فيتوزَّع مع الطلبة على مصاطبَ يمزجون الالوان منتجين الجديدَ منها ومتوجهين الى استاذهم فائق حسن ليمنحهم انطباعَه رِضاً أو همسات بهيئة ملاحظات.

قال له مندهشاً: كيف تَصدُّك وانا شاهدتُها بعينيَّ هاتين تحمل مجموعتَك الشعرية الاخيرة وتضمّها الى صدرِها، تحنو عليها مثلَ طفل، وتتيه شاردة كأنها تعيش الوله مع كل صفحة من صفحاته.

ـ أنا موجعٌ!.. " تنهد الشاعر يُسمِعُ صديقَه الرسام". ما الذي يجعلها بهذا الجفاء إذاً؟!

تلك اللحظة خُيِّلَ اليه أنّه يبصر حمامة تشتعل فتضجُّ بالنور ثم تتعالى نيراناً ترتقي الى السماء.. خيل اليه انه يسمع اصواتاً رخيمةً تلحقها في ارتقائها وعلوِّها.. هنالك.. حيث الملائكة تعيش وارفة في رحاب اللّه وجلاله، فتساءل: تراها الملائكةُ تحتفي بالكلمات التي القيتها على الجمهور وتحتفل بالقصيدة التي كرَّستها لها؛ أم هي ترتيلة عزاء لعدم تجاوبها معي!....آآآآآآآآ حمامة.

تلظَى وهو يرددُّ اسمَها!

تحسَّر وهو يستعيد نفورَها!

توقَّف يجمع الكلمات من شَتات فكرِه المُبَعثر ويقول لصديقه بما لا يُصدِّقُه:

"هل تعرف انني رأيت حمامة؟"

"أين؟"

"هنالك مع الملائكة.. اتكون حمامةُ ملاكاً هبطَ الى الارض متنكراً بمهمّة سماوية؟"

يطأطئ الرسّام راسَه لوعةً على صديقِه فيحسب انه يضع الخطوةَ الاولى على دربِ فقدان العقل.. يطأطئُ رأسَه بحزن، ويتململُ مرارةً.. يقولُ في سِّره: الشعراءُ لا يستمتعون بالحياةِ الا حين يطرقون ابوابَ الجنون، ولا يهنئون في مملكتهِ إلا اذا فقدوا العقلَ واضاعوه في دروبِ التيه.

يرفع رأسَه ويقترح:

ــ صديقي حزين.. دعني أُساهم في حملِ بعض من ألمِك، فأنتَ رفيقي وسميّي في الابداع.

تململَ حزين. طأطأ رأسَه هو الآخر قليلاً ثم رفعه.

هـالَ الرسـامُ رؤيتـهُ يـرتعش وقـد ترقـرق الـدمعُ في عينيه، وخمَّنَ سيحَهُ نهراً، فانبرى يرجوه:

ــ يا صديقي.. دَع حمامةَ لسرِّها واتركَها لما هي فيه. لماذا تسعى لالتقاط السَّكاكين من جراحِها لتودِعَها قلبَك حتى تمزقه؛ وما هذا الجزع الذي يطوقك فيأسرك... التضحيةُ لا تكون هكذا، والجزع لا يجب أن يستولي على بستان الروح ليحيله صحراء تشكو الظمأ... ثم أننا لا نعيش القرون الوسطى حيث الحبُّ حزنٌ وبكاءُ ولوعة. لن تكونا قيساً وليلى، ولا روميو وجوليت.

غرق الاثنان في الصمت.

حزين يفكِّر بحمامة، وصديقُه الرسام آثر جمعَ الاثنين (هو وهي) معاً في لوحة سيضمِّنَها معرضه القادم خلال اسبوعين.

***

بعدما دخلت حمامةُ البيتَ واحكمت اغلاقَ الباب من الداخل توجَّهت نحو غرفتِها. رمت العباءةَ على

السرير الخشبي وخلعت عن رأسِها شالاً لم ترَ حاجةً له بل اجباراً على ارتدائه منذ أنْ تولّت الاحزاب الدينية مقاليد تسيير البلد؛ ثم فكّت ازرارَ بدلتِها الحابسة لجسدِها وتوجّهت الى المرآة. أبعدت قرّاصة شعرها ووضعتها على قاعدة المرآة ثم نثرت الشعر على كتفيها.. راحت تتأمّل قوامَها؛ تُطالع تقاسيمَ وجهِها؛ الحاجبين المقوسين كثيفي الشعر، الانف الدقيق، الغمّازتين وهما ترتكزان وسط الخدين، الشفتين المكتنزتين، ثم انتصاب الرقبة على كتفين برمانتي ذراعين متكورتين؛ فعادت اليها مغازلة اقرانِها الشباب حين كانت تمر في الزقاق. خارجة إلى العشّار وقد بهرتهم باستدارة وجهها وتمايل قوامها غنجاً لا تتقصده.

تعبر الجسورَ الصغيرة المحتلةَ ارصفتُها من قِبَلِ باعةٍ شباب نثروا بضاعتَهم التي بعضها امشاط ودهون شعر وعلب شامبو مُقلَّدة وصوابين متنوعة وعلب فازلين لترطيب البشرة وملاقط شعر وتباروا يهتفون بالمارّة يدعونَهم لمطالعةِ بضاعتِهم واغرائِهم بالشراء عبر كلماتِ الترحيب والاستقبال الحميمي فيما آخرون

يبيعون عِدد التأسيسات الكهربائية ومصابيح ومفكّات براغي، كذلك النسوة، وكُنَّ كثراً، يفترشن الارض يعرضن على ابسطةٍ موحلةٍ اعشاباً طبيّةً ومساويكَ ومسحوقَ الحِنَّة والتمائم والشذر المتنوع كأحجار كريمة تجلب الحظ وتكشف الطالع.

تخرجُ من زحامٍ لتدخل زحاماً.. زحامات أوجدها عدم النظام الذي اجتاح المدينة بعد الاحتلال وجعل حركة السيارات في الشوارع ضجيجةً واصحاب الدكاكين يُخرِجون بضاعتهم ليراكموها في المقدِّمة غير آبهين لضجر المارّة وتذمرِهم؛ والباعة ينتشرون في فوضى لا خلاص منها.

"ما الذي أتى بها إلى السماوة؟! ولماذا اختيارها هذا البيت المنزوي، وفي زقاق العمّة تحديداً؟! ".. يتساءل حزين بحيرةٍ، ويحترقُ لوعةً.

كان حاول ايجاد المبررات للإجابة على اسئلةٍ تنبثق داخل مسارب الروح لإرضاء قلبه وتطمين مشاعره؛ فيقول: كثيراً ما تتحكَّم المصادفةُ في مصير الانسان واضعةً إيّاه في اللاحسبان، في اللاتوقع، في اللاقصد.

ولم يكن يدور برأسه أنَّ ثمَّةَ سرّاً استمر دفيناً في نفسٍ لخمسةَ عشر عاماً، وما مجيئُها إلا لكشفِ هذا السر.

كان صديقُه الرسام يتساءل: إنَّ البصرةَ لمدينة جميلة ومبهرة، وإنَّ شطَّ العرب لساحرٍ ومثير فكيف أتت إلى السماوة تاركةً الجمال والسحر، متجاوزةً الابهار والاثارة؟!.. "؛ ثم "لماذا اختارت هكذا بيت منزوٍ داخل أزقة ملتوية كالأمعاء؟!".

تساؤلاته يخفيها في سرّه ولم يفِه بها لحزين لئلا يجرحه ويُشعره أنَّه بالسؤال يستفز قلبَه ويطعن خيالَه ويطيح بهيبةِ سموِّها في روحه إلا بعد أنْ وجده يوغِل في ايذاء نفسه. فإيذاءُ النفس فعلٌ يدخل من باب الظلم الذي يكرسه الانسان في ما غير مُجبرٌ عليه. لذا وجد ضرورة ايضاح تأثير الالم وتبعاته على جهده كشاعر موهوب يحظى بجمع هائل من المعجبين.

كان فكَّر بلوحةٍ انطباعيةٍ يضع فيها حزين مع حمامة عند جسر صغير في حديقةٍ تُغني نهاراً وتهجع ليلاً للتفرِّغ الى الاحلام وسط رومانس يجلب لهما السرور..

جسر كالذي وضعه كلود مونيه في لوحته "بحيرة زنابق الماء". لكنَّ الانطباعيةَ مدرسةٌ فنية تخطّاها الزمن ردَّدَ الرسام في سرّه بحدسِ متابعٍ للفن وموهوبٍ في الرسم.. نعم كانت موجةً ساحرةً، وكانت مدرسةَ جنون، بل كانت ثورة في عالم الفن واللون والضوء، وهي الآن تدخل ضمنَ اطارِ الكلاسيك فلم تثر أحداً لو عرضها في معرضه القادم، وبذلك لن يكون لها وقعٌ في نظرِ زواره... تألمَ هو الآخر كألمِ حزين؛ وكشرودِ حمامة.. ظلَّ يردّد بلسان الحيرةِ والتساؤل: ماذا افعل، يا إلهي؟.. حزينٌ صديقي، وحمامةٌ مُلهمَته فكيف أُخلِّدهما في لوحة؟ كيف أفي حقَّ صداقتنا الازلية. إنَّ الصداقةَ لصلة مودّة. تتبارى النفوسُ على ايقاعِ توافقِها لتحيا خالدةً تحكي سر مخلوقات ترى في الحميمية صفةً مُثلى.. نعم، سأنجزُها لوحةً تحكي الخلود لحبيب يرسم الخطى ألماً للوصول إلى حبيبته؛ والحبيبة من جانبها تتضرع لقلبها أن لا يقسو ولا يظلم.

وكانت حمامة هناك في غرفتها تفكِّر هي الأخرى وقد رمت جسداً واهناً على السرير: يا إلهي؛ هذا الشاعر

مُعنّـى بـي، ملـهوفٌ علـيَّ. وأنـا لا اقـدر علـى صـدّه ، كذلك لا استطيع اظهار ودادي له... أعنّي على محنتي يا رب، واجعلني قويّة صامدةً قبل أن تنهار دفاعاتي فاعُلِن هيامي أنا الاخرى به.

نهضت.. تركت السريرَ ورفعت كتابَ روحِه.. طالعت العنوان، وتحولت الى الغلاف الخلفي لتتشرب ملامحَه في الصورة التي تكشف شابّاً اغدقت عليه الوسامة بهاءً، وامطر عليه الجمالُ الكثير من سحرِ الورود. كان شاربه اسود تهبط ذؤاباته على خط شفته العليا الهابطة على شفته السفلى الممتلئة، وكان الخدان مورتويين حرَّكا في قلبها ماءَ الوله الساكن فمررت سبابتَها عليهما ورفعتها الى عينيه.. كانت عيناه واسعتين برموش نافرة سحرتها وكادت أنْ تذيبها في بوتقة البوح فتروح تردد: لا أحد يمتلك القدرةَ على تجاوزك.

كانت تريد أنْ تقول: ليس فتيات الصالة اللاتي هتفن لك هنَّ من يُحبَّنَّك بل أنا.. أنا التي تواريتُ في تلك الجلسة، في ذلك الاحتفاء لئلا يزداد تعلّقك بي فتهيمُ

كما هامَ عشاقُ القرون البعيدة بمن سحرنَهم.

ما أنْ وصل طرفُ سبابتِها الى سواد عينيه حتى طَعن القلبَ سهمٌ نافذ.. كانت الحدقتان تخفيان حزناً دفيناً وأفقاً تتلبَّد فيه غيومُ الأسى؛ (هكذا حَدسَت). وتوصَّلت بعد تفرِّسٍ طويل إلى أنَّ هناك ما يجعل الشعراء يختلفون عن العامّة فيبدون كأنَّهم يعيشون في عالمٍ آخر أو أنَّ لهم جُرماً يقضون فيه اوقاتهم حين يرتكنون إلى الوحدة ويتوارون في الانعزال ليبكوا بكاءً مريراً، ويحزنون حزن الثكالى.

تمتمت: ما لهم الشعراء يَسِعدون المستمعينَ فلا يُسعدون؛ ويفرِحونَ القُرّاء فلا يفرَحون.. ولماذا حزين بكلِّ هذا الأسى؟.. تراني أنا من تسبَّبَ في ذلك أم أنَّ ثمَّةَ ما يوجِعُه؟

حزِنت، وتألَّمت، وتأسَّت. ثم عادت لتلتحف الليل وتنام على أمل النهوض مُبكراً لمواصلة مهمّة جاءت لأجل انجازِها والعودة الى مدينتها البصرة، حيثُ ستقف على تخوم شط العرب لتطلعه على اتمام وفائها بما تعهدت به.

تلك الليلة كان حزين يتلظّى على نارِ اسئلة الوصول الى قرارٍ بقطعِ طريقِ حمامة وايقافها وسؤالها عن سبب تغاضيها عنه.. وكان صديقُه الرسام يتململُ في فراشِه يبحث عن مدرسةٍ فنية يَدخلُها كي يؤرِّخ وجودَ الاثنين.

(٢)

ذلك الضحى الخريفي، قبل خمسة عشر عاماً، شوهدَ مُختار المحلّة يصاحب امرأةً على مشارف الثلاثين وقد انهمكَ يحدِّثُها عن هدوءِ الزقاق وبساطة البيت ويدعوها بشيء من الحنان أنْ تتولّى هي ترتيبه وبإمكانها جعله بيتاً يجمع اركان العيش الهانئ والحياة المستقرة اضافة الى محدودية أجره الشهري، فالبيت تملكُه امرأة عجوز لا معيل لها سوى العيش على مبلغ ايجاره.

كان الكلام من نصيب المختار والانصات مقروناً بنعم، نعم من نصيب المرأة التي بدت مقتنعة جداً وراضية فهي لا تبغي شيئاً سوى العيش بهدوءٍ ودِعة.

اولج المختار المفتاح في عين القفل ووارب الباب. دخل

الاثنان إلى حوش ينفتح على فضاء مشرق وغرفتين متلاصقتين وزاوية بمثابة مطبخ مكشوف يُعلنه السّخامُ المتشبث بالجدار والصاعد نحو السقف.

كانت احدى الغرف واسعة بحيث رسمت المرأة في مخيلتها اين يكون السرير واين تُنصب المرآة، وفي ايِّة زاوية تتَّخذ خزانة الملابس مكانها. خزانة لا تريدها كبيرةً انما تخصُّ شخصاً بمفرده وملابس محدودة العدد.

شكرت حنوِّه ومساعدته واستلمت المفتاح كآخر تعامل متبادَل.

وقبل أنْ يستدير خارجاً ويغلق الباب وراءه قال: لهجتُك بصرية؛ أأنتِ من البصرة؟".. قالت نعم.

لم يقف ليعلن حبّه للبصرة ويفضي بشيء مما تختزنه الذاكرة عن تلك المدينة الجنوبية المخضبة بحنّاء النقاء والرقّة والدِّعة، وانه قضى أعواماً هناك يشتغل في المَعقل مقاولاً يجلب الطعام لشركة توسيع محطة سكك المعقل، وإنه يكنُّ حبّاً للمدينة واهلها والطبيعة الحانية التي اغدقت عليهم البساطة فجعلتهم طيبين في كلِّ

شيء... فقط سلّمها مفتاح الباب وخرج وهو يُسمِعها: "العيش في السماوة كالعيشِ في البصرة.. الناس هنا ايضاً طيبون".

تحرَّكت وحيدةً وقد شعرت انها على موعد مع الاستقرار بعيداً عن مخالب العسَف.. دفقةُ مغصٍ تعتريها كلما تصورت انها ستبتعد عن البصرة ولا تدري متى تعود.

شرعت تطوف برويّةٍ تمسح خارطة البيت ابتداءً من السطح حيث الدرابزين المصنوع من الخشب واسياخ حديد كانت صدئة نزولاً إلى الجدار المفتتة بعض طابوقاته دلالة القِدم.. كان الوقت ضحى ونور الصباح في اقصى توهجه والشمس تسرِّب بعض من اشعتها على حافة الجدار المشترك مع الجيران.

دخلت الغرفة على يمينها وكانت كبيرة نوعاً ما قياساً لحاجتها؛ غرفة تتقبل السرير والدولاب والمرآة ومنضدة تُراكِم عليها ما يزيد من حاجتها سواء كان بساطاً او وسادة او ملاءة، وهناك على الحائط الذي سيقابل السرير ستدق بعض المسامير لتعليق عباءتها وما

يتطلب الحال.

تحركت للغرفة الثانية وكانت اصغر بقليل من سابقتها. لها نافذة بدرفة واحدة تنفتح على الزقاق لكنَّ حيطانها ما زالت تحتفظ ببياض الجص رغمَ اصفراره في اماكن متفاوتة. رأت أن زجاجة النافذة وإن كانت موحلة ستساهم في استقبال الضوء القادم من الزقاق.. خصَّصتها غرفة لتناول الطعام جاعلة نافذتها مثابةً للاستماع ومعرفة ما يدور في الزقاق.

تركت الغرفة فرأت أنَّ عليها الاستراحة قليلا فقد رمى بها قطار السريع القادم من البصرة في منتصف الليلة الفائتة في السماوة، وانَّها قضت الساعات المتبقية لحيان بزوغ الفجر وحلول النهار جالسة على مصطبة في الحديقة الصغيرة المجاورة لمبنى المحطة، وانّها قطعت الشوارع والطرقات طيلة فترة الصباح ومرَّت على السوق الكبير بحثاً عن بيت يناسبها قبل ان يسوقها الحظ إلى هذا البيت الهادئ والمناسب لفرد يبغي الوحدة.

نادت عليها دكّة السلم الصاعد الى السطح ودعتها للجلوس بينما تهيأت حافّةُ الدرجة التالية للاتِّكاء..

جلست مانحةً ساقيها حريةَ الامتداد الى امام والانبساط ريثما تشبع من الاسترخاء.. استعطفت اللحظة منحها حريةَ البكاء فطفقت تجهش، مُدينةً قدراً حتَّم عليها الهروب والتواري ودفعها الى الترحال والنأي عن مدينتها المستحمّة بنميرِ هناءِ الوداعة والطيب.. غذَّت باطنَ كفّيها بما استطاعت من دمع، ثم تمخَّطت بمنديل كان رفيقاً لها تولّى تشرّب ما ذرفته العينان طيلة وجودها في مقعدها بالقطار السريع وهي تعيش مع مَن خطفته اكفُّ التجني وقضت عليه ظلماً وجرماً... تمنَّتهُ الآن معها في هذا المكان البعيد عن الغلِّ والخوف؛ تمنَّته يعيد ادامة النظر في عينيها الوسيعتين بحدقتيهما السوداوين. وعاد اليها همسُه وهو يسبح في بحرِ السواد: مريم! عيناك تقتلانني، يا حقيرة." يشدد على كلمة حقيرة لا ليهينها انما ليفرغ ما في بحر روحه من أوار النار المُعتلِجة في قلبه لها كمفردة تعي معناها الخفي الباعث على الدلال والوداد الذي كالمطر مدراراً هطولُه.. في سِماعها المفردة منه لأول مرّة وهي تتمتم بوله وانتشاء " وليد.. وليدّ..!" ظنَّته يستهينُ بها ويزدريها؛ حسبته يمارس لون الرماد في تضئيلها. فنالها الجزعُ،

وحقـدت عليـه لوهلـة.. وهلـةٌ اسـتطاع بحدسِـه ونباهتِـه اكتشـاف الـدواخل المحتدمـة. وقبـل أن تدينـه بسـؤالٍ مُحـرج احتضـنَها ، وقـال: يـا جنَّتي الغنّـاء؛ مـا قلت هـذه الكلمـة البغيضـة لـديك ولـدى الآخـرين إلا لتقـدير حبّـي ولهفـتي المهـولتين لـك... اقولُهـا لابنـةِ اختـي الصـغيرة حـين تؤدي حركةً طفوليـة رائعـة تذيبني حنانـاً وتـرهنني اسـيرَ حركتِها الملائكية...

لحظتها تراجعت؛ ولم تقل له ما اعتلج من حقدٍ عليه في دروب اعماقِها المأسورة بحبّه.

قال: لن اكررها عليك إنْ ترينَ فيها خدشاً لمشاعرِك لكنّـي سـأبقى أقولهـا لابنـةِ اختـي الصـغيرة كلَّمـا أدَّت حركةً تذهلني.

طالعت ساعةَ معصمِها فوجدت الظهيرةَ لمّا تزل بعيدة.

خرجـت الى السـوق لابتيـاع مـا تجـده ضـرورياً: عفـش للنـوم ومـرآة كـبيرة للجـدار؛ مـواد طـبخ وعِـدّة صـحون؛ خضـار لتهيئـة طعـام ذلـك اليـوم... وكـان مـن اولويـات اهتمامهـا شـراءَ قفـصٍ واختيـار بُلبـلٍ يُحسـن التغريـد ويجيـده ليكـون أنيسـاً لهـا. لكنّهـا اجَّلـت الأمـر بعـدما

اطمأنت لمن اخبرها عن سوق قريب لبيع الطيور والاقفاص. رأت انْ ستأتي به عصراً، بعد الغداء؛ بعد محاولة الرقاد وقت القيلولة.

ولم تكن قد اعدَّت الغداء عندما طُرِقت الباب ووجِهت بامرأةٍ اربعينية تحمل صينيةً احتوت صحنَ رزَّ عليه نصف دجاجة مشوية وماعون مرق باميا وكاسة لبن زبادي، وباقة ريحان نَضِرة. قالت لها: هذا عربونُ صداقتِنا فنحن جيرانُك ، واشارت بإصبعها الى البيت. اذا احتجتِ شيئاً فلا تتهيَّبي.

الغداء الذي تناولته كانَ شهياً؛ وساعةُ العصر حيثُ برحت البيت وخرجت اثمرت عن قفصٍ معمولٍ من أعواد سعف النخيل وبلبلٍ نافرٍ برأسٍ اسود وابيض وجسدٍ رمادي.. بلبل ما أنْ علَّقت قفصه على الحائط المواجه لغرفتها وحرك رأسه يميناً وشمالاً لاستطلاع جغرافية المكان حتى اطلق تغريده كأنه يحتفي بالكينونة الجديدة ويسعد؛ أو كأنه يبعث برسالة الى من ابتاعته بانه سيكون رفيقاً حميماً يعوّض فراغَ البعيد ويقلل من ثقلِ الغربةِ عليها.

سعدت لهذا الذي سيشاركها نهارَها واعلمتها مساحةُ الحوش الواسعة بضرورة تأرخة وجودِها في هذا البيت.

ولم يأت نهار اليوم الثاني إلا وفسيلةُ نخيلٍ تأتي بها وتغرسُها وسط الفناء الفسيح وتروح تسقيها يومياً مثلما تطالع تأثيرَ وجودِها كنخلة على بلبل مهنته التغريد... (انها تعيد اكسسوار بيتها في البصرة وترسم خارطته ليكون مقارباً للذي هنالك.. نزلت دمعتان ساخنتان على وجنتيها وهي تتذكَّر).

الذكرى بقدر ما هي لذيذة حين تتسلل من دهاليز الذاكرة وتدخل بستان الوعي فإنَّها بلا شك تثيرُ الشجونَ وتقضَّ مضاجعَ الهجوع. لذلك كانت مريم تستدعي الصور والحوارات فتأتيها سريعة على جناح اللهفة.. يأتيها وليد!.. تارة بالطلعة البهية يوم شاهدته لأول مرة بذلك الحفل البهيج ليلة تزوجت زميلتها في دائرة بريد العشار من ابن خالتها ودعتها لحضور الفرح؛ وتارة أخرى وهو مُهشَّم الاعضاء وقد أغمض العينين كأنَّه يخفي احتجاجاً لعقوبةٍ تسببت بها أكفُّ التجنِّي.

كانت تشعر أنَّ بقاءها في السماوة سيطول، وأنَّ عودتها الى البصرة صارَت من عِداد المستحيل. فوصولها إلى هناك يعني سقوطَها في براثن السلطة المحلية التي اصدرت أمراً بالقبض عليها.. وعندها ستطالها مخالبُ العَسَف هي الأخرى... هذا الشعور جعلها تكرِّس فكرةَ البقاء والعيش والاندماج وإلا ستموت كَمَداً وحرقةً، وسيكون مآلها الانتحار كما انتحرت الكثير من بنات مدينتها إمّا اجباراً على الزواج أو لثقلِ فقرٍ مُدقع لا أمل في تجاوزه إلا بالدعارة؛ والدعارة شيء مُشين لديهن او جرّاء ملاحقة سياسية.. لذلك قرَّرت من أول ليلة تصرفُها في البيت اتباع اسلوب التعايش وعدم الانعزال.

في الصباح اتجهت على هَدي عنوانٍ حصلت عليه من شقيقِ وليد فوجدت نفسها تقف أمام استاذ شاكر. رجلٌ ستيني تقاعدَ من سلكِ التعليم توّاً، قالت له اسمي مريم فاستقبلها بترحابٍ حالما قرأ الورقةَ وعرفَ الاسمَ المدوَّن فيها.. قال لها إذا رغبتِ انظمّي الينا في هذا المعمل المتواضع لصناعة القمصان والعاملات الخيَّاطات الخمس هنا سيكونَّ زميلاتك ورفيقاتك في العمل.

بالعمل أُزيلَت اولُ عقبةٍ في مسارِ حياتِها القادمةِ المجهولة فانفتحَ امامَها بابُ الاستقرارِ الاقتصادي.

افتتح الاستاذ شاكر المعملَ اعتماداً على عاملاتٍ ماهراتٍ في الخياطةِ استطعنَ منافسةَ بضاعةِ السوق من القمصان. وكان المعملُ يستقبل مَن يأتي ليقدِّم اقتراحاً لقميص يبغيه حسب ذائقته ومواصفاته.. وقتُ العمل يبدأ من السابعة صباحاً حتى الرابعة عصراً؛ تتخلله استراحتان الاولى في العاشرةِ لتناول الفطور ويأخذ نصف ساعة، والثانية في الساعة الواحدة والنصف ويأخذ ساعةً كاستراحةِ قيلولة.. ذلكَ كان لصالح مريم التي رأت فيه انصرافاً للوقت والتمازج اجتماعياً مع رفيقاتِ عملٍ وجدتهن الصديقات الحميمات.

ما تحصل عليه من دَخلٍ يعينُها على دفع ايجار الدار ومصروفات الطعام وما يفيض تصرف بعضاً منه على حلوى تبتاعها عند انتهاء العمل فتوزعه على أطفال الزقاق، ما خلق عادةً يوميةً لهم.. ينتظرون عودتَها من العمل وقد اشترت في طريقِها انواعاً من الحلوى والسكاكر.. صاروا يطلقون عليها العمّه مريم. يبهجون

لمقـدمِها حـين يظهرُهـا فـمُ الزقـاق.. يشـكرونَها بـألقِ عيونِهم وبهجتِها وهم يفرّون سعداءَ بما استلموا منها.

غب زمنٍ زادَ على العامِ صارَ بيتُ العمّة دالـةً واسماً لا يهرب من الذاكرات.

يطالع الاستاذ شاكر مريمَ فيجدها أصغرَ العاملات لديه.. فتـاةٌ لا تتعـدّى الـثلاثين وتعـيش وحيـدةً مـا جعلـه يُغـدِق عليهـا حَنانـاً أوفـر واهتمامـاً كـبيراً اكتشـفته زميلاتُها العاملات فبررّنَ الأمر في نفوسهنَّ ولم يـراودهنَّ شيطان الحَسَد. وهي في دورِها تكتشف كم هو رقيقٌ ودفيءٌ يُسهم بكل اندفاع لدعمِها ومساعدتِها.

لقـد حـدسَ أنَّ سـرّاً يَكمُـن خلـفَ حضـورها الى السـماوة وتركِهـا البصـرة... مـا كـان ليجـرؤ علـى استفهامها خشية احراجِها وجعلها تملّ العملَ فتهرب.. لـذلك استثنى اي سؤال، جـاعلاً علاقته بها كعلاقتِه بزميلاتها.

وكان ان استمرت معه ومع قريناتِها بتوادٍّ وألفة.

تُنتِج فتربَح، تُبدِع فتنالَ الثناء.

تستفيدُ من فراغِها بالتجوال في المدينة.

تعرَّفت على الفرات وكانت تقتنص وقتَ ما بعد العمل لتتَّجه إلى الجسر الخشبي كي تعبره لا لهدف الوصول الى مكان تقصده، بل لتشاهد الزوارق وهي تتهادى بانسيابيةٍ، والصيادين وهم يرمون الشباك الى الماء فتفزُّ في عينيها صورُ صيادي شط العرب يجوبون النهر في مهمّةِ صيد يومية، وتلك الزوارق المخصَّصة للرحلات النهرية.. تذكر، وهي تنتهي من عبور الجسر وتعود ادراجها، مواسمَ صيدِ سمك السبور القادم من البحر بأفواجٍ مهولةٍ فيسقط في شباك الصيادين فرائسَ سهلة يُغذّي المدينة ويُشبع الفقراء. يومَها كانت اكبر سمكة سبور لا يتعدى سعرها الخمسين فلساً.

تستفيد من الفراغ لتتجوَّل في سوق المدينة المُسقَّف مُندسَّة بين المتفرجين والمتسوقين كي تستعيد حيويةً تحدُّ من اوارِ اعماقها المعتلجة. إنَّ الهمَّ لثقيل، وإنَّ الحزنَ لا ينضب. فلتتجوَّل إذاً، وتتجوَّل.. تدري انها ستعود الى البيت لتبدأ قصيدةَ الالم التي لا تنتهي، نادبةً اياماً ولَّت كانت تعيش فيها السعادة فأبى القدرُ إلا أن يغتالها

بأيادي البشر القُساة.. تعود لتمارس فعلَ البكاء المر والحزن الذي لا تريد له الزوال، فليس بعد غياب وليد من سرور، والهناءُ مفردةٌ اخرجتها عِنوةً من قاموسِ حياتها.. صارت العودة الى البيت وصرف نصف الليل في البكاء وحيدةً عادة يومية مسبوقة برحلةٍ تأخذها عبر الازقة لتنتهي بالفرات. تنهمر الدموع من عينيها انهماراً وتنفلت من مساربَ روحِها شهقاتٌ تترى تُنبىء بحزنٍ دفين. هناك تتَّخذُ السلَّم المرمي نزولاً الى بساطِ الرمل فتدنو كثيراً من الجرف مُتسمِّعةً ومنصتة بشغف لحفيفَ الماء المار بهدوءٍ يحاكي فيه هدوءَ الطبيعة.. من الضفةِ الاخرى تأتيها اضواءُ مصابيحَ مستشفى المدينة، صفراءَ تسفحُ نورَها على عتمةٍ تتسيَّد المكانَ واشباحُ السكارى الخارجين من نادي الموظفين المجاور للمستشفى وهي تتمايل جرّاء خمرٍ عتعتهم.. اشباحٌ تخطو قليلاً ثم تتوقَّف فتسمع حواراتَهم مبتورةً وغير واضحةٍ تأتي سابحةً في الهواء. وهناك صفاراتٌ تئزُّ في اذنِ الليل يُحدثها الحرّاس المتوزعون في الاحياءِ يطلقونها لقائدِهم دلالةَ وجودِهم في قلبِ الواجب من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى تُنبِّه اللصوصَ إلى وجودِهم فتُفشِل خطَطَهم في السرقة.

وإذْ مـرّت الاعـوامُ وأخَـذَها الشـوقُ لأهلِهـا اسـتبدلت حضورَها الليلي من النهرِ إلى محطةِ القطـار حيـث يلتقـي القطاران السريعان القادمـان مـن بغـداد إلى البصـرة ومـن البصـرة إلى بغـداد منتصـف الليـل في محطـة سـكك السـماوة فينـزل الركـابُ لفسـحةٍ مـن الوقـتِ يشـترون وجبـات الأكـلِ السـريعة او السـجائر او يشـربون الشـاي والمشروبات الغازية.. هناك كانت تحضر فلا تنام.. تتَّخِذ مكاناً خفيّاً تطالع من خلاله وجوه الرّكّاب النازلين من القاطرات أو الذين وراءَ زجاجِ نوافذِها علّها تشاهد احد اقربائها أو من تعرفه يسكن في محلتها أو أحد موظفي البريد حيث كانت تعمل وتركته مُجبرةً حتى فُصِلت مـن عملـها.. أخـذت هـذه العـادة اليوميـة منهـا الاعـوام. وكانـت تعـود خائبـة، منهكـة، لـوعى. تـدخل الأزقـة الموحِشـة وصـولاً إلى بيتهـا. تـدير مفتـاح البـاب وتـدخل واغلب الجيران يسمعون صدى خطواتها في الليل البهيم فيتأسـون ويتمتمـون في سـرهم أدعيـةً تتضـرَّع للّه منحهـا مرادها ؛ فقد تحمَّلت بنظرِهم الكثير الكثير، ولاقت نتيجةَ العيش وحيدةً ما لا يُلاقيه جيشٌ من البشر همّاً وحزناً وفقداً وانتظار.

استحال استخراجُ البومِ الصور الذي جلبته معها في رحلتِها العسيرة ومطالعته صورةً فصورة من عِداد اثارةِ الشجن واستدعاءِ الغصّة.. صارت حين تخلع ثوبَها وتقف بمواجهة المرآة تشاهد قواماً ناحلاً يفترسُه الضمور، هي التي كان وليد يرجوها الوقوف أمامه كحواء عاريةً إلا من سحرِها وفتنتِها وجمالِها. فيقول لها بولعٍ: ابيعُ العالمَ كلَّه واشتريكِ.. أنتِ فينوسي، آلهتي التي أعبُد.. أنتِ ايقونتي وكتبَ هنائي.. جنَّتي اليانعة أنتِ.

تصرف الوقت حتى تنعس وتنام... لقد نامت عديد المرات وخدّها على الألبوم المُشرَع الصفحات.. نامت ومصباحُ الغرفة في توهّجٍ؛ وبابَ الغرفةِ مفتوحٌ للريحِ والبرد وفي حالات للقططٍ المتسلقةِ الجدران، المتنقلة من بيتٍ لبيت بحثاً عن طعامٍ سائبٍ؛ حتى اذا نهضت صباحاً اكتشفت أنَّها اعادت سلوكَ الليالي الفائتات.

هذا الصباح نهضت.. ايقظها تغريدُ البلبل وهاجمَ غرفتَها ضوءُ النهار.. طالعت الساعةَ المنضدية. وكان العقربان على السادسة والنصف.

تركت السرير ونظرت لوجهِها في المرآة. لم تُعِر هما

للصفرةِ الظاهرة على وجنتيها ولا قالت هذه ليست فتاةً بعمرِ الثلاثين انَّما توجَّهت تغسل وجهَها وتتهيأ لإعداد الفطور.

كان فطورُها كما عوَّدَها وليد: شرائح جبنة وصحن زيتون مع رغيف خبز. صحبةُ ذلك استكانُ شايٍ ساخن.. كانا يجلسان متقابلين على منضدة يحتويهما كرسيين بلا مساند جلبها كي يغيِّرا من اسلوبِ تناولِ الطعام الذي عادة ما يكون على بساطٍ يفترش الارض. ممارسةٌ اعجبتها واحبَّتها. رأت في جلوسِهما متقابلين سلوكاً حضارياً يؤديانه بسعادةٍ ثم ينهضان هي تتوجّه إلى عملها، وهو ينشغل بالاتصال بمكتبه ومعرفة مجريات الامور.

ونهضت بعد تناولِها الفطور بغصَّةٍ...

ارتدت ملابسَها وخرجت وقد ودَّعها البلبل بسيلٍ من الزغاريد والطيران النزق داخل القفص.

(٣)

طالعت حمامة النخلةَ باهتمام، وكان التمرُ لمَّا يزل في عذوقٍ هادلة.. قالت لها مالِكة البيت المؤجِّرة: هذه النخلةُ عمرُها خمسَ عشرة سنة. غرستها شابّةٌ استأجَرت البيت لأعوام ثم عادت الى أهلِها في البصرة عليلةً خاوية. وكان هنا في هذا المكان الذي تعلّقين فيه هذا القفص قفصٌ ابتاعته مع بلبلٍ كان يمنحها الألفة وترى فيه رفيقَ عمرٍ كما صرَّحت لي مراراً.. لم تكن قد سافرت إلى أهلِها مرةّ ولم نرَ من جاءَ ليزورَها إلا بعد أنْ نَحلَ جسمُها وضعف، ومرضت بحيث لم تكنْ قادرةً على اطعامِ نفسِها. يومها تهافت الجيرانُ ووضعوا جدولاً في ما بينهم لإطعامِها فلهم مَعها اعوامٌ من الودِّ والرفقةِ الدافئة، ولها معهم حسنُ السيرةِ والنوايا الطيبة... ويوم تخيلت أنْ ستموت في هذا البيت ارتعبت وكانت تبكي شوقاً إلى مسقطِ رأسِها، وفي خفوتٍ تُردد: "اريد العودة إلى وليد.. وليد مَن يشفيني".. ولم نكن نعرف من هو وليد؛ ولا هي أفشت بسرِّها... لأيام ألحَّت عليَّ أنْ أنقلها الى الكراج الموحّد؛ وساعة تهيئتُ

لحملِها في سيارة أجرة تأخذنا الى هناك طلبت منّي انزال القفص. مدَّت كفّها المتهالكة ففتحت بابَه وامسكت بالطيرِ الصديق. تفرَّست به بحنانٍ كأنَّها تشكره على حسنِ صنيعه في مرافقتِها الاعوام الفائتة ثم أطلقته بشيءٍ من الرضا الكثير والفرح الشحيح... بعدها أصعدتُها في سيارةِ اجرة حملتها الى البصرة مع ركّابٍ انبروا لمساعدتِها. لوَّحت لي بأصابعٍ واهيةٍ من خلف زجاج السيارة لحظة تحركت.. كان في عينيها بريقُ امتنانٍ لي ولسكّان الزقاق الذين احبّوها بصدقٍ فأغدقت عليهم عطرَ علاقةٍ حميمة.. لوَّحت بأناملِها ولم تكن لديها قدرةُ التعبير... ولا ندري بعد ذلك أشفيت أم توفيت... لم تُبقِ لنا غير ذكرى من النقاء والوفاء والعلاقة الوردية الناصعة... كان اسمُها مريم."

انتهى اللقاء مع مالكة البيت العجوز لكنَّ اللقاءَ مع الألم لم ينته. إذ ما أنْ خرجت المرأة واغلقت الباب بروية حتى اندفعت حمامة إلى غرفتها. ارتمت على السرير؛ وأظهرت المرآة التي على الجدار حمامةً تجهش في نوبةِ بكاءٍ حادَّة سبّب لها نهاية المشوار وجعاً في خاصرتها

وتشنّجات تعالت لصدرِها.. ولحظة رفعت حمامةُ رأسَها ووجهت بوجهِ فتاةٍ باكية انتصبت وسطَ المرآة.

قالت لها الفتاة بنظرةٍ سمحة: عُمرُ البكاء ما أعاد غائباً، ولا الحزنُ قُيضَ ليكونَ وسيلةً لاستعادة ما انتهى.

كانت وهي طفلةٌ تذكرُ أمَّها تتحدَّث عن العمّة مريم.. تصفها بذلك القوام الذي أثار اقاربَها من الشباب فاندفعوا يؤلّبون امهاتهم على التحرك لطلبِ يدِها من ابيها، تاجر الاسماك الذي يتخذ من الفاو موقعاً لتجارته، ومحاولة اقناع أمِّها، المستعذبة بجمالٍ تعزوه لسلالتها الجميلة، في ارضائها.. تقول أمُّها: كانت مريم طويلةً فارعة ببشرة حنطية والشعر الاسود طويل وطويل كذيل حصان عقصته القرّاصة من اعلى وتركته يتمايل مع تمايل ردفيها، ويهتز على ايقاع حركة جسدها.. مُهرةٌ عفراء ترفلُ على أمواج الدلال والغنج... رفضتهم جميعاً؛ وكان في نظرِها فارسٌ لم يحِن قدومه، لم يأت أوانه، لم تره فتفتتن به، فتولع بقوامه، فتتيه هياماً بطلَّته، فتعيش الاحلام بالتواصل معه،

فتقول هو ذا فارسي الذي أرومه، رأيتُه وصاحبتُه وعشتُ معه فاتَّخذتُ قرارَ الاقتران به.

كانت مريم ترتدي الفساتين على آخر موضة يأتي بها ليبرون سيمون بائع الكماليات في سوق حنا الشيخ. وليبرون يدري أنَّ فستاناً كهذا لا يليق الا بمريم؛ فيبعث بمن يوصل الخبر لأمِّها فتأتي الاثنتان.. يفرد امامهما الجديد بالوان متفاوتة لكن بموديل موحَّد.. تبتاعه وسط رضا الام وانبهارها فلا يوقفها سعرٌ ولا يكبحها رأيٌّ بأن ما تلبسه لا يليق بها، فهي للفنانات المتفتحات.. وكانت بغنجها وسيماء الدلال تمطره عيناها توافقها الام بشيء من العِتاب توجهه للبائع: وهل الفنانات اكثر جمالاً وتفتحاً على الحياة منّا.. إلى أنْ جاء وليد محمولاً على سحابةِ المصادفة؛ فقالت في سرِّها: "هو ذا فارسي!".. ووشوشت في مسمع أمِّها: "هو ذا يا أمّي!.. هو!.. هو!".

تبكي حمامة! تبكي بلوعةٍ، ومرارةٍ، وأسى. تعود اليها صورةُ عمَّتِها مُسجّات على فراش وثير يشيع فيه البياض وقد احتلت مملكتَها جيوشٌ الشحوب فسرقوا كلَّ نضارةٍ من سيمائها، واقتلعوا من عينيها بصيصَ

الامل في البقاء، وأجهزوا على نشاطٍ رُغمَ ضآلته كان يمدَّها بقوَّةٍ النهوض والجلوس عند النافذة التي تطل على الدرب لتستعيد المرّات العديدة التي كان يطل فيها وليد قادماً الى بيتها وقد حفّته نسائمُ المحبّة فنقلته ولِعاً اليها من بيروت مباشرة قبل أن يتوجّه الى بيته ليطبع قبلة الشوق على كفِّ أمه، وأتت به لينثرَ عند شرفاتِ عينيها قصائدَ الشوق: "لقد رأيت الكثير من النساء، يا مريم. والتقيت اعداداً لا تحصى من ربّات الجمال والاغراء فلم يرفُّ قلبي لواحدةٍ منهن، ولا هفَت الروح يوماً لغوايتهن واسقاطي في هوّة الركض وراءهن. وكانت أمّي كلّما ترجَّت وضغطت من أجلِ الاقترانِ بواحدةٍ يهمس لي القلبُ ويقول واثقاً: لم يحُن مَقدمُ مَن تُريد.. لم تأتِ بعد التي تسعدك.. إنّها هنالك، ما وراء سحابات الغيب؛ جميلةً، نقيةً، حييةً تتحلّى بالوفاء."... تتقاطر الدموع من عيني مريم.. الدموع هي الرصيد الوحيد الذي تتمتَّع به وتصرفُه بسخاءٍ وفاءً لوليد.. لذلك كانت تُطالب امَّها التي غدت عجوزاً تطعنها الأيام كلَّ يومٍ برؤية مريمها تتقهقر أنْ لا تتقاعس عن تلبية ما تريد. لذلك ولكبر سنِّها وعجزِها عن مساعدة ابنتها العليلة

أخـــذت تُطالـــب حمامـــة الصـــغيرة ذات التســـعة اعـــوام بمساعدةِ عمّتِّها للوصول الى كرسيٍّ لتجلس عليه يومياً تطالع الدربَ تبديداً لاستعمارِ الفراش لها... تقف الصبيّة مريم بمحاذاة الكرسي وتطالع الدربَ هي الاخرى.

ولتكـرر الحـال صـارت العمّـة كلمـا جلسـت علـى الكرسي طالبت حمامة بالوقوف لصقِها.. تقول بعدما تتأكـد مـن مبارحـة أمّهـا الغرفـة: مـن هنـا كنـت اقـف منتظرةً وليد.. كان قدومُه يعني لي يومَ سعادةٍ وساعاتِ عيـد.. مـن هنـا كنـت ألـوِّح لـه وقـد رفـع عينيـه لتتلقيـان انتظـاري، فيسـعد.. أراه بعـدما يترجـم تلويحـة يـدي كلمات استقبال يمتلـىء حبوراً حتـى أنَّ مشيته تـتغير، ويكـاد يتعثـر جـراء محاولـة اختصـار المسـافة للوصـول لبيتنا".

تقول ذلك وتترك للدمعِ حريةَ النـزول سيلين دافقين على سهوب خديها الضامرين.

في احـدى المـرات كـان الجلـوس للتطلـع عبـر النافـذة اخذ القليل من الوقت؛ إذ لم تُعد لها القدرة على البقاء في الكرسي طويلاً؛ لم تُعد تتأمَّلَ ظهور وليد يأتيها على

غيمة الشوق، بل احسَّت انها ستلتقيه في مكانٍ آخر.. تلك المرّة طلبت من حمامة الصغيرة أنْ تحني رأسها لتكون اذنُها قريبةً مما ستفشيه لها.

تماثلت حمامة لطلبها فدنت من فمِها حتى شعرت بأنفاسِها ساخنةً وسريعةً تحمِّم خدَّها.

قالت: حمامة، يا بنتَ أخي. سأفشي اليك بسرٍّ لا تعلنيه لأحد؛ ولكن عاهديني على أن يبقى سرّاً فعلاً. ابقيه في صندوق صدرك. ويوم تكبرين وتجدين نفسَك قادرة على الايفاءِ بعهدك انطلقي بكلَّ قوتِك ومهارتِك وذكائِك لتحقيق مُرادي.. هل تعاهدينني." وكانت تقول ذلك وقلبها يتململ ويعاتبُها: كيف تطلبين من صبيّة مُهمَّةً لا يتولاها الا الكبار؟.. تنساب الدموعُ من عينيها وتردّد متمتمةً: ماذا افعل! مُجبرةٌ أنا على ذلك لئلا أموت ويندثر ما خبأتُه.. إنّه تاريخي، أيامي وأعوامي، سعادتي ولوعتي، نشوتي وحزني.

(٤)

تلك الساعة الباردة من ليلةٍ شتائية قارصة خرجَ حزين تاركاً البيت وقاصداً صديقَه الرسّام. لم يأبه لقتالٍ يدور بين فصائل من الاحزاب الاسلامية تتصارع على ما لا يعرفه. كانت لعلعةُ الرصاصِ تُسمَع وأزيزُه يمرَّ قريباً من أذنه. لم يكن الذي يخيفُه موتٌ تأتي به رصاصةٌ طائشة أو مقصودة من مقاتل يرابط خلفَ سترٍ مُحكَم وجدَ هدفاً يقيسُ، من خلالِ رميه، دقَّةَ تصويبه إنَّما من صدٍّ نهائي وقاطع تتَّخذه حمامة تجاهه وترميه في هوّةِ المجافاة واللامبالاة فتتركُه شاعراً يقول الجنون ويُداهَم بشرودِ الذهن وطيران العقل بعيداً عن مَجسّات التوازن والسيطرة.

كان عليه أن يبرح البيت مُستقلاً سيارةَ أجرة تأخذه إلى حي "أم العصافير" حيث بيتُ صديقِه الرسّام؛ ومُصمِّماً إن اقتضى الأمر على المشي راجلاً وسط الظلمة أو في أوار الضوء الشحيح إذ المصابيح تجاهد على سفحه، قاطعاً المسافات الطويلة والاحياء المتداخلة وصولاً لبيت الصديق.

كانت دواخل حزين تحتدم والافكارُ ضجيجَة.. تولد لديه القصائد من كلامٍ ينطقه، وتتفجّر فيه اللوعةُ من نظراتٍ يبعثها لصديقه كبرقياتِ استنجاد.

ولقد فوجيء الرسام بحزين، لحظة فتح الباب، ينتصب بعينين غائمتين فدعاه للدخول.. اتَّخذا المدخلَ ذي البلاط البني والاصفر المائل للون التراب في طريقهما الى المرسم.. كانت حيطانُ البيت وسياجُ الحديقة من الداخل تعجُّ برسوماتٍ برع صديقُه في رسمِها بطريقةٍ بانورامية.. رسوم تستعير من المدارس الفنية رسائلَها ويتفنن هو في التحكّم بالألوان؛ يحاورها بلسان موهبته ويتبارى معها في انتاجِ ما يترك اثراً في ذائقةِ من زارَ بيته واطَّلع عليها.

وجد حزين نفسَه امامَ باب المرسم المفتوح والصديق يدعوه للدخول ليتفاجأ هناك بشخصِه مرسوماً على مستطيلِ لوحةٍ لم تكتمل؛ فقد تعمَّد الصديق أن لا يرسم من غير التفرّس بوجه حمامة واشباع مخيلته بطولِ قوامها لذا ترك النصف الثاني من اللوحة يسبح في هلام الفراغ بانتظار هجوم الألوان وظهور حمامة بأجمل مظهرٍ

وأبهى طلعة.

جلسا على أريكة تعوَّدا كثيراً الجلوس عليها والتداول في أمرِ قصيدةٍ كتبَها او لوحةٍ أوشك صديقه على انجازِها فبين الشعرِ والرسمِ حواريةٌ من التماهي والتداخل، من الشوق والاحتراق، من الكتمان والافشاء.. فلون القصيدة كلماتها، وكلمات اللوحة ألوانها.

أدرك الصديقُ بحكمِ عهده أنَّ حزين مرتبكٌ بحبِّ حمامة، وأنَّ ارتباكَه يخلق له حالةَ اللاتوازن، لذا عمدَ الى مفاتحته بكلِّ جرأة:

"اقترح عليك اعتراض حمامة وايقافها والاستفسار منها مباشرة. فالفتاةُ ليست بجاهلةٍ فتُعلن الشكوى منك ولا المتهوِّرة فتتبري لاتهامِك بمعاكستها.. لا، ولا أظنُّها تصدّكَ بخشونةٍ حتى.... ثم أنَّ لك اعتباراً عندها.. لقد شاهدتُها بنفسي تتابع وباهتمام مسارَك الشعري، ورأيتها تدخل مكتبةَ كنوز التراث وتسأل عن مجموعةٍ شعريةٍ اخرى لك، غير التي شاهدتُها قبلا بيدها.. هذا يعني انها تعرفُك وتقرؤك. يعني انها ميَّزتك شعراً وألَّت

بما أنتَ عليه من شهرةٍ تستدعي حسدَ الآخرين خصوصاً وجلُّ شِعرِك يتوجّه للمرأة في الدفاع عنها وشحذ هممها لتكون عنصراً مؤثراً لا تابعاً ضعيفاً.

نهض الرسّام يعمل فنجاني قهوة في زاوية المرسم كعادته حين يبتهج لزيارة حزين بينما نهض حزين فوقفَ بمواجهةِ اللوحة التي تنتظر اكتمالَها.

أكبرَ في صديقه عُظم الموهبة، ودقّة استخدام الفرشاة، وتطويع الألوان.

ومن جانبه اباح الصديق بما يأمل في جعلِ اللوحة من أجمل لوحات المعرض، مُصمماً على اسقاط الزوار في حومةِ الدهشةِ والاعجاب.. يقفون امامها بلا حساب للزمن؛ فقط التشبّع من شهدِها ما يأملون؛ مأخوذين بالقوامين الملائكيين ومغمورين بحيوية الألوان وفورانها، بحيث تصنع جَذلاً متراغياً يتعالى في نفوسِهم وانشدادهم اليها برغبةٍ لا تنضُب.

وكان إنْ انتهى اللقاء بتصميمِ حزين على ايقاف حمامة واطلاقِ الاسئلة المتراكمة في صدره عن جفائها له، إذ لم يبدر منه ما يجعلها تصدَّه وتتغاضى عن

رجاءاته.

كان رآها أولَ مرّة تسيرُ رفقةَ عمّه عبد الجبار صاحب مكتب عقارات الشمس. وكان هو يمر من أمام الزقاق في نيَّةِ شراء ثريّا يبغي تعليقها في سقف غرفته ليعيش البهرجة الضوئية والنور الوهّاج فيجعل الألوانَ تترجم الجمال، ويبهره الضوء من المصابيح العديدة فينطلق بكتابةِ قصيدةٍ تتخلَّى عن الحزنِ وتبعد لوعةً يشعلُها الشاعر لشواء روحه على نارِ الابداع والتميّز فالشعراء مشاريع احتراق دائم قصد بعث الجمال من تحت رماد الحب والشوق والتضحية... شاهدَ عمَّهُ يقودها الى زقاقِ بيت العمّة.. فضّلَ الجلوس في الصف الامامي لمقهى ابو سعد يحتسي الشاي ريثما يعود عمّه، ذلك أنّه انشدَّ لمرآها فرفع الفضول بيرقاً قصد التعرف عليها وعنها. لفت انتباهه الترجّل الواثق من قبلها والانتباه لما يقوله عمُّه وهو يقدِّم لها وصفاً للبيت ويُعلمها أنَّ ملكية البيت تعود لعجوز كرَّسته للإيجار، وأنَّ الناس تعاقبوا على استئجاره والسكن فيه.. بيت هادئ والجيران يجمعهم الوئام وتحدوهم رغبة العيش الحميمي كما لو

كانوا عائلة واحدة فمَن لا يرغب بذلك.

وكانت العودةُ ميمونة؛ إذ ظهرَ العمُّ وحيداً. دعاه حزين لشرب الشاي فاستجاب لمشيئته. وخلال ارتشاف الشاي والانتهاء منه عرف أنَّ الفتاةَ اسمُها حمامة، وأنّها قادمة من البصرة معلنة موافقتها على استئجار بيت العمّة واستعدادها لترتيبه بما يناسبها؛ ووجد انَّها مُصرِّةٌ على استئجاره رغم أنَّه عرض عليها أكثر من بيتٍ افضل منه وبنفسِ قيمة الايجار.. اباحَ العمُّ بقوةِ شخصية الفتاة وثقافتها العالية مثلما أبدى اعجابَه وهو يردد: هكذا النساء وإلا فلا.

(٥)

بعد مرور عامٍ اشتاقت مريم لسماعِ اخبارِ أهلِها وما هو موقفُ السلطة من فرارِها وتواريها.. هل اوقفوا تساؤلاتهم أم ما زالوا يتردَّدون للسؤال عنها؟... ارادت معرفةَ ما حلَّ بأهلِ وليد؟ هل ما زالوا يعانون العَسف؟ هل تجاوزا محنةَ مقتلِ ابنِهم؟ ما هو حالهم بعد غيابه؟

تلك الليلة كتبت رسالةً مطولة إلى امّها ضمَّنتها الاسئلةَ الآنفة، مُعلنةً الاشتياق وباثّة خبر حياتِها الهادئة

ولو على مرارةِ غيابهم عنها... اختارت عنوانَ خالِها بائع السجّاد في العشار لتبعث اليه الرسائلَ ومن ثم يوصلُها لامِّها. وهنا، فكَّرت بعنوانِ رجلٍ تأتمنه إنْ جاءَ الرد.. قلَّبت في ذاكرتِها عنواناً مع أَنَّ المناسب يمكن أنْ يكون معملَ الخياطة، لكنَّها طردت الفكرة عندما راودها هاجسُ فضولٍ قد يعتري الاستاذ شاكر أو احدى زميلاتها في العمل فينكشف الجانبُ الخفي من حياتها، هي التي صمَّمت بعدم الإفضاء به خشيةَ وخمةِ العواقب.. ولم يستقر رأيُها إلا على العم أمين صاحب العطارة القريب من فمِ الزقاق.. لذلك عرَّجت عليه حال خروجها للعمل صباحاً وأعلمته بمرادِها، فلم يبدر من الرجلِ غير الترحاب. عندها دوَّنت العنوان خلفَ المظروف زمن تناول الفطور. وإذ حانَ وقت القيلولة قصدت دائرة البريد فألصقت الطابع وزجَّت بأول رسالة لها في صندوق البريد. ودوَّنت وصولها ليد شقيق وليد. اختارت لها اسماً مستعارا حسبما اتفقا عندما غادرت البصرة للتواري بعدما اعطاها عنوان استاذ شاكر ليكون عوناً لها في السماوة.

انتظار الرسائل وجسامته كانت تبدّده بالذهاب ليلاً الى الفرات.. هناك تجلس على صخرة مرمرية أو على نديفِ الرمل عند الضفةِ تحاوره بالشجن فيعود حاملا ذكرى تواجدها الكثير في شط العرب.. إنَّ لها صلةً جميلةً بالماء، فهو يذكّرُها بالمواعيد المتكررة مع وليد حيث كانا يصنعان بالتجوال وهمس الاحاديث عند ضفاف الشط سيمفونيةَ سعادتِهما أو يتَّخذان من مصطبةٍ يكون خلفَهما تمثال السيّاب المنصوب حديثاً بعدما حققَّ الفنانُ "نداء كاظم" حلمَ مشروعه بوقوف السياب هنا فيُخيَّل للناظرين اليه أنَّه يُلقي قصيدةَ "غريبٌ على الخليج" أو " مدينةٌ بلا مطر"، أو يتمتم بأخرى يجدُ فيها المُعبّرة عن لوعتِه وحزنِه وتشاؤمِه من الحياة.. وكم من مرَّةٍ صعدا زورقاً طاف بهما لمسافةٍ بعيدة ثم يعودان مُفعمَين بالحبور وعطر الخزامى تفحّه النباتات من مخادع ورودها البنفسجية.

بعد اسبوعين انتهى قلقُ الانتظار.

انتهى بمجيءِ رسالةٍ طويلة، احتوت معلومات غزيرة كانت بحاجة لها من الأم. في واحدة منها افهمتها أنَّ

المعاناةِ مستمرةٌ، وأنَّ متابعةَ الأسرة جميعاً لم ينته... ذلك رشقَها بسهامِ القلق وارداها حزينةً لأسابيعَ كان فيها البيت ملاذاً آمنا وعلاقتها الحميمية بالأستاذ شاكر وزميلاتها تُبدد مسارات الخوف والتطيّر، وتخفِّفّ، ولو قليلاً، من ثقلِ المعاناة.

وظلت الرسائل تأتيها. لا يحمل فحواها ما يدعو للتفاؤل أو خبر يبشر بوعدِ قربِ عودتها الى البصرة؛ فمرت الاشهر تلو الاشهر وتهافتت الاعوام فوق الاعوام.

في العام السادس من وجودِها في السماوة اغلق الاستاذ شاكر المعمل عندما تهافتت البضاعة الصينية الرخيصة وطغت على أسعارِ الخياطة وثمنِ القماش فرأت نفسَها تعيش البطالة؛ ووجدت أنَّ عليها مواصلة العيش ولو بالنزر اليسير. تلك هي الحياة لا تتوارد معزوفتها بطاقةٍ تمنح الروح فيضَ البهجةِ على الدوام إنّما تتواتر الأحداث وتتنوع التقلبات.

ويمرُّ الزمنُ بأيامه واشهره.. تمارس عملَها من البيت تصنع ملابس للأطفال ولمن يأتيها من الأسر الفقيرة وبأسعارٍ خفيضة.

بعد اعوام افتقدت الى الرسائل التي انقطعت عنها؛ وكانت تمرُّ على العَم أمين العطّار تسأله إنْ كانت ثمّة رسالة تحملُ روحَ الاهل وحفنةً من انفاس العشّار ونسائم شط العرب وكركرة اطفال "الخندق" وهم يملؤون الازقة زعيقاً طفولياً لا يثير الاستهجان إنَّما يمنحهم طيبَ رقّةِ الأهل وتبرير سلوكٍ يتساوق واعمارهم الصغيرة.

كانت اعتادت استلام رسالة كل اسبوعين، ثم بعدها تجاوز إلى ثلاثة اسابيع. وتعدَّت بعض المرّات الى الشهر. وفي كل مرَّةٍ كانت تطمئن نفسها بإعطاء العذر لأمّها جراء اشغال تضطرّها الى التلكؤ. وحصل انقطاع دام أشهر كانت عينا العم أمين تجيبان بالأسى، ولسانه يكرر بحرقة:" لا.. ماكو والله.. ".. بل يتقصَّد في اظهار تعاطفه معها والوقوف الى جانبها فيقول: كلما مرَّ "ابو الصاروخ"، ويقصد ساعي البريد، استوقفُه فاسأله وفي أملي أنْ يسلِّمني رسالةً موجهةً لكِ.".

فترات الفقد تواصلت ولم تأتها رسالة كلماتُها تُرطِّب جفافَ الروح؛ ولم تسمع أنَّ احداً من الاهل

والاقارب جاء يسأل عنها.

واستمرت تنتظر، وتنتظر.

ولقد مرَّ الزمن بلامبالاته فلم يُنصفُها، ولم يرد اعتباراً لعسفٍ مورس معها.. ظل يُثقِل عليها بما يؤذي القلب ويبدّد وهجَ الذاكرة فوجدت نفسها غب أعوام عِرضةً لفتكِ ضغط الدم وخواء القلب وضعفه بما لا يمكنها من مواصلة العمل بجهد فاستحالت عليلةً تداري الايام بجَلَدِها وما تبقى لها من صبرٍ على شحَّتِه.

وفي يوم تكشَّف لها استحالة العيش كما تشتهي فمرضت ولازمت البيت؛ ولم يكن من بُدٍّ في اغداق الرحمة عليها من قبل الجيران، وكانوا ظنّوها لا أهل لها يمكنها التوجّه اليهم في أواخر ايامها.

(٦)

"حمامة!.. حمامة! ردّي ارجوكِ! "

تتهافت رجاءات حزين الذي لحِقها وهي تدخل الزقاق وكانت عائدة من السوق وقد ابتاعت بذوراً لطيرها

وسُكَّراً وجدت حاجةً له.

دخلت حاثّة الخطى؛ غير آبهةٍ كما يبدو للنداء... فراح يكرر:

"ردّي؛ حمامة، أرجوك."

وإذ لم تولِه اهتماماً أسرع في مشيه حتى اجتازها واستدار يوقفها.

أمام اصراره، وخشيةً على تهالكه، وشعوراً منها أنْ لا طائل لصدِّه توقَّفَت..

طالعته باهتمام.. طالعت رجاءات تُمطرُها نظراتُه المتوسلة.. طالعت اصابعَه تعبثُ بذقنه وتنزل تدلك رقبته دلالة القلق والارتباك... لحظتها فاهت:

"احقّاً تريد الجواب، يا حزين؟.. أمستعد لما ستكتشف؟"

يا إلهيَ! انها تعرفني وتقول اسمي!.. قفز اليه كلام صديقه الرسّام عندما أخبره باقتنائها مجموعته الشعرية وبحثه عن أخرى.

"نعم.. بكل جوارحي."

"بكل جوارحك؟.. أهذا عهد لا تراجع عنه؟"

" نعم" قالها بإصرار.

عندها أومأت برأسِها بما ترجمه دعوةً للِّحاق بها.

توقفت عند الباب تفتحه ووقفَ هو خلفَها بخطوات متسمِّراً؛ غيرَ مصدِّقٍ قبولها الخرافي.

واربت الباب وقالت: تفضَّل.

دخل.. عجَّ فضاءَ الحوش بتغريد انطلق فجأة من البلبل الذي نفر داخل قفصه المتكىء على جذعِ نخلةٍ عُمرها خمس عشرة سنة. عمرٌ يقترن بذاكرة حمامة ستكشفُه يوماً ما لحزين.. بدا البلبل كطفلٍ بانتظار أمّه أو عاشق مُعنّى قالوا له أن دواءه قادمٌ وحان شفاؤه، فتقدَّم الدواء حبيبةً انتظرها على حسابِ حرقِ اعصابه ولظى دواخِلِهِ وهتكِ سرورِه وجاءه الشَّفاء على طبق من لحظة سعادة مفتَقَدة.

تقدَّمت إلى القفص.. كوَّرت شفتيها وراحت تحاكي طيرها بصوت مُنغَّم وحنانٍ دفين يُخرج زقزقة هو الآخر فانتشى الجسم المغزلي وانطلق يطير من قاطع عرضي

لآخر، يطلق التغاريد قصيدة شعر.. قالت وقد استدارت لحزين:

"انه يقول قصيدة.. هكذا هم الشعراء، بلابل تغرَّد.. وهكذا هي البلابل دواوين شعر صوتية."

دُهش لرومانسيتها.. تعجَّب.. أراد البوح بالحديثِ عن جمالِها فيقول ما كتبه باسترناك في رسالة بعثها الى مارينا تزفيتاييفا "أنتِ جميلةٌ للغاية، أنتِ أختي تماماً، وحياتي، أنتِ نزلتِ صوبي مباشرةً من السماء، وأنتِ توافقين الاطراف الأخيرة للروح. أنتِ لي، هكذا كنتِ دوماً، حياتي كلُّها لكِ".. اراد أن يضيف ويضيف لكنَّه لجمَ نفسه. فليس عدلاً أنْ يقول ذلك في أول لقاءٍ، ولم تكد تمضي دقائق على دخوله.

أدخلته الى غرفتها.

في الغرفة كانت هناك منضدة وكرسيان... على المنضدة مجموعةُ اوراقٍ مبعثرة وجهاز تسجيل وثلاثة من أشرطة الكاسيت.

بدا الامرُ لغزاً لحزين.. بدا كمن يعيش عالماً تتبارى

في ثناياه الاحاجي ما يجعل الناظر يقع في يمٍّ حيرةٍ وغرابة.. لم تولِ حمامة اهتماماً لاستغرابه وهي تطالعه يمسح ما على المنضدة بشيء من الحيرة والشَّدَه؛ ولا اظهرت خشيةً من عدم فهمه؛ وكانت مستعدة للإجابة عن اي سؤال يتوالد لديه فيطرحه.

صفَّفَت الاوراقَ ورتَّبتها ثم دفعتها له وقالت: خذ.. طالع ريثما أعدُّ لك فنجانَ قهوة.

كانت الاوراق ممتلئة بكتابة انثوية استطاع تمييزها ، فللنساء خطهنَّ الذي يميزهن. وكان الخطُّ مُتقناً والكتابةُ تُظهِر ان كاتبتها صرفت الوقت تدون بتؤدة أو هي كتابةٌ مُبيَّضة عن مسوَّدةٍ بحيث لا يوجد فيها حذفٌ ولا تعديل.

كاد ان يرفع راسه مستفهماً ليقول ما هذا عندما وجدها برحت الغرفة.

تفرَّس في الاسطر الاولى لأول ورقة وشرع يقرأ :

((يكبرُني بعشرة أعوام كان.. طويلٌ ورشيق، وله وجهٌ مليح. عيناه تحشدان ألقاً ، يبُثّان سحراً؛ تأسران من

يتحدَّث إليه. رأيته أولَّ مرَّةٍ في الليلة التي سبقت حفلَ زفافِ زميلتي الموظَّفة في دائرة بريد المعقل يقفُ في الحديقةِ الواسعة للبيت. كان حضر كقريبٍ للعرّيس وصديقٍ للجمع الذي تولّى مهمّة اعداد مراسيم حفل الزفاف.. لديه قدرةُ التحدّث مثلما لديه قابلية التأثير على المستمعين. لذلك كنتُ المحُ مَن يقفون معه ينصتون باهتمام، يتابعون حركةَ شفتيه وهما تنطقان كأنَّهم في حالةٍ من التأهب والانقضاض على كلِّ كلمةٍ تشارف على الخروج من فمه.. يتحرَّك فيتحركون معه؛ يتبعونه ثم يتحلَّقون حوله من جديد.

سألتُ احدى النسوة: "مَن يكون؟"

قالت بلسانِ مثقفة ولها دراية تامة به: "هذا وليد بن حاكم الفضلي.. اقتصادي وسياسي ويقول الشعر ايضاً."

فاستدركتُ بتساؤل: "ولكنّي لم أره في الحي من قبل؟"

"معكِ حق.. منذ سبعة اعوام وهو يعيش في بيروت، يدير مكتباً لتجارة الأزر العراقية وتصديرها إلى أوربا

عبر بيروت أو نقلها مباشرة إلى العواصم الغربية. أوكله عمّه الذي يسكن العاصمة بغداد ليقوم بإدارة مكتب بيروت.. يزور أهلَه كلَّ ستة اشهر؛ واذا اقتضى الحال واشتاقت أمّه له فثلاثة. لا يطيل بقاءه لأكثر من ذلك."

"هو إذاً غير مستقر في البصرة".. ردَّدت مع نفسي.

"غير مستقر هنا في المدينة." قالت المرأة وكأنَّها ترجمت ما دار برأسي."لكن حين يجيء الى اهله يسعد اصدقاؤه ومعارفه لما يغدق عليهم من هدايا يأتي بها من لبنان. بضائع اغلبها فرنسية غالية الثمن."

ابتسمَت بوجهي. لكأنها تريد البوح بما يدغدغ قلبَ الفتيات الراغبات بالزواج من فرسانِ الاحلام:

"اعزب ولم يتزوج رغم اقترابه من الاربعين." تحوَّلت ابتسامتها الى قهقهةٍ وهي تنهي الكلام.

الجمع الذي يتحلقون حوله جلُّهم من اقرانه الذين بسنّهِ وعدد من الشباب المتحمسين لأن يترسموا خطاه أو يتمنوا مهنةً تشابهها في السفر الدائم والعيش في مدن الاحلام كما هي بيروت. يحدّثهم احاديثَ تُمطِر سعادةً،

توجِد هناء. وكنت اقتنص الفرص الخاطفة فأراه مهيباً؛ أو ملاكاً يُعلِّم الحضورَ الجمالَ، ويجعل من المكان محطة للتلاقي الوديع حيثُ يتخلَّى فيه البشري عن امراض الروح من بغضٍ وكراهيةٍ وحسدٍ وتجبّر. اسمعه يتمثَّل بالمتنبي وشعره.. يقول الشعرَ كأنه يمثِّله، فيدهش له الآخرون مستمتعين بالحركةِ والصوت .

فكَّرتُ، بل صمَّمتُ أنْ اتعرف عليه؛ أنْ ادنو منه فأتكلَّم معه.. استدار في حركةٍ بطيئةٍ وهو ينتهي من الحديث مع المُنصتين له. كان حديثُه الذي التقطت نهايتَه يتركَّز على الصبر والتجلّد؛ على النفور والمغامرة، على التحرّك ورفض التصمّغ... وأسمعهُ: " إنّا لفي زمنٍ ترْكُ القبيحِ به// من أكثرِ الناسِ إحسانٌ وإجمالُ ".. ثم ينتقل للكلامِ عن الاصدقاء الانيسين الذين يصنعون له السعادة.. "اعذب صديق لدي هناك."؛ وتوقف يطالع الوجوه ليقيسَ مدى شغفِهم ويستطّلع حدسَهم. فابتسم اغلبهم عندما قال:"انه البلبل؛ هذا الجميل، الماكر، المليح، الخدّاع بصوته" إنَّ المِلاحَ خوادِعٌ قُتلُ -يستشهد بالمتنبي -؛ يُصبِّحَني في أول

اشـراقةِ النهـار ويـدعوني للهـدوء مـع أدنـى اقـتراب الغـروب".. الاسـهابُ والشـرحُ والكـلامُ الكـثير عـن صديقه حفَّز لديَّ الفضول سعياً لمحاكاته.

في صباح اليوم التالي قصدتُ السوق، وعرَّجتُ على انعطافةٍ قـادتني إلى محـلات بيـع الطيـور فابتعـت بلـبلا وقفصـاً وعـدت الى البيـت وسـط ذهـول أمـي ودهشـة اخوتي.. بلبل وقفص "أَعُدتِ إلى الطفولة ولرغبة اقتناء العصافير؟" تساءلوا.

"نعم، يـا أمـي! -أتمتمُ -لا تكبحـي رغـبتي، ولا تلوميني على نداء القلب.. ابنتك توّاً ادركت الوله؛ وانتم يـا أخـوتي دعـوني أجمـع فراشـات السـعادة واطلقهـا في فضاءِ روحي العطشى لكلمات العشق وقصائد الشوق."

الليلـةُ التاليـة كانـت ليلـةَ الـزواج. قضـى المحتفلـون كرنفالاً مقروناً بالزغاريد مصحوباً بـالرقص والتطويح بـالرؤوس، فالنبيـذُ خيرُ وسيطٍ بـين الفـرح والـروح، بـين الانشراح والانكماش.

تلـكَ الليلـة سمعتُـه يعلـن، وهـذا مـا صـعقني، أنَّ هـذه آخـر ليلـة يقضـيها بينهم في البصـرة، وانـه غـدا صـباحاً

سيطير الى بغداد ومن هناك إلى بيروت.

ماذا؟!.. يا إلهي، ماذا اسمع؟ ما اعنف الصاعقة التي انزلها الخبر على رأسي؟.. ماذا تفعل أيها القدر.. فتحتَ باب السرور ليومين ثم اغلقتَها بعنفٍ وشدّة؟ أهكذا يكون الحُكم؟! أهكذا تكون الأُمنية؟!

حاولتُ بكلِّ وسيلةٍ الاقتراب منه فلم افلح.. كان بين المُحتفلين من الرجال.. وحين خرج رأيته محاطاً بثلّةٍ الاصدقاء.

ليلتها بقدر ما رسمته فارساً سيأتيني على فرسه خيّالاً محتشداً بالشوق هاجمني الكَمَد وشعرت بالأسى وندبتُ الحظ لأنه لم يُتح لي فرصةَ أنْ أكلّمَه، أن أدخلَ حديثاً معه، أنْ الفتَ انتباهَه حتى.. لكن ما وضع عندي لؤلؤةَ الرجاء والأمل هو تعهدُه لصديق أنْ سيحضر زفاف ابنه البكر، وانه سيساهم في الاحتفاء بكل جوارحه.. وكان الموعد بعد شهرين. قال: "سأحضر.. لا يمكن تفوّيت فرصةَ فرحي بزواجِ ابن اعزِّ اصدقائي."

في اليوم الثاني كان مكانه فارغاً؛ فقط انفاسُه ووجوه الرفقة تتحادث.. فقط شوقي في التطلع لاستعادة

اين وقف، واين جلس، واين اطلق ضحكة الهناء بوجوده بين الاصدقاء في حضور كرنفالي سعيد.

وكان الشهران طويلين وثقيلين.. كانا عسيرين على مَن يلاحق دقائق اليوم وحركة الساعات.. كانا بطيئين على مَن يترجّى النهار الانصراف فيأتيه الليل يدبُّ كما سلحفاة لا يريد أنْ ينجلي على مَن يبغون انتهاءه والخروج من حضن اليوم.

شهران صرفتهما أقلل من الخروج الى الشمس خشيةَ لفحِها وحرارتها التي تلصق السُّمرة في خدي.. شهران تعاتبني الصديقات على اختفائي وعدم مصاحبتهن كما اعتدت الى الاسواق للشراء والبحث عن الموضة الجديدة ومطالعة المعروضات الكمالية.. كنت أُبرّر ذلك لقسوة المناخ تارة وحاجة البيت ومعاونة أمّي تارات.

مرَّ الشهران وقد حسدتُ نفسي على جَلَدي.. حسدتُها على صبرِها وقوةِ تحمّلِها؛ ووجدتني اقبل على خبرِ قدومه بسعادةِ طفلةٍ اغدقوا عليها جملةَ العابٍ دفعةً واحدة. فهرعتُ الى فستاني الذي ابتعته وصمَّمته على أنْ يكون أولَ مَن يستقبلُه.. لبسته! ووقفت أمام المرآة فابتسم وليد.

كانت ابتسامتُه قصيدةَ فرحٍ.. كانت الكلماتِ التي انهالت من شرفةِ روحِه.. دنا منّي، وفي اذني همس: أنتِ فتاتي التي أعشق! أنتِ الحبُّ الذي انتظرتُ بزوغَه طيلةَ أعوامي المشرفة على الاربعين.. أيكون تأخرُ اقتراني بواحدةٍ مؤجَّلاً بمشيئةِ السماء؟

هرعتُ الى حفل زفاف ابن صديقه وإنْ لم توجّه لي دعوةُ الحضورِ والمشاركة.. هرعت وقد اعانتني على ذلك قرابته لصديقة صديقتي في عملي التي رأيتها تشارك في المراسيم. اذ استقبلتني بترحاب قائلة انا اتذكرك. فانتِ مَن استقبلتني وقدتني الى صديقتي في دائرة البريد عندما سألتُك مصادفةً عنها.

تلك الليلة لمحته يدخل مُسرعاً؛ ومُسرعاً يصافح الجميع ويخرج معللاً خروجه لحضوره توّاً من السفر وحاجته للراحة.

صافحتني الطمأنينة على تواجده في البصرة وحضوره حفل العرس المقرر له في الغد.

وكان انْ انتهت تلك الليلة التي اسميتها ليلةَ الفرح لمشاهدتي له وقد عاد من بيروت وفياً لعهد قطعه

للصديق.. تسللت صورته إلى ذاكرتي فتجلَّت صورة قمرٍ وضّاء وانا اضع رأسي على الوسادة مستعيدةً فيلم مشاهدتي له من أول لقطة أقبلَ فيها مبتسماً وقد نهضَ له الجالسون يرحبون به ويصافحونه بحميمية حتى لحظة تواريه بعد توديعه الحضور عائداً الى بيته.

عصرُ اليوم التالي أطلَّ بقامته وابتسامته فجلس مع المحتفين بالعريس الذي بدا سعيداً مع مسحة الخجل لليلة فرح سيلتقي خلالها بعروسته ليعلنا اقترانهما الأبدي.

تبادل المحتفون شربَ القهوة والأحاديث، ثم جيء لهم بصحونِ الحلوى: بقلاوة وكنافة وزنود الست.. تناولوها باستعذاب وشهية مفرطة للسكرياتِ ورائحةِ الهيل وطعمِ الزبدة العذب وسط الفكاهات والضحكات الوردية.. ولقد استغرقوا في جلستهم حتى الغروب، بعدها نهضوا الى العشاء الذي أُعدَّ لهم في حديقة البيت الواسعة. تلاها تناول الحلوى وشرب الشاي في قاعة الاستقبال. ما لفت انتباهي فيه أنّه ما ان يختلي بنفسه ويجلس وحيداً للحظات حتى يتشرب وجهه بمسحة حزن وتتغير قسماته

كأنّها تعبر عن أسى دفين.. قرَّرتُ عندما التقيه وادخل حديث الرفقة اسأله: شاهدتك سمحاً وكيّساً ومهابا، لكنَّ لي سؤالاً ارجو ان لا يغيظك: لماذا تبدو حزيناً او كئيباً وانت تجلس بلا كلام.. لقد ساورني اعتقاد أنَّ هناكَ ما يتراكم فيكَ فيتدفق كما بئر لم تقدر الأحجارُ المُلقاة عليه وفيه على تضئيل حجمه؟

كنتُ وانا اجلس جوار العروس اتبادل الحديث معها ومع الجالسات ابعث بنظراتي الى غرفة الاستقبال..ما الذي دهاني؟.. لا ادري. كانت طلعة وليد هي ما ابحث عنها.

لا ادري لماذا خيّل لي انه خرج فخلا مكانه وحل معه القلق والهواجس.. طال الوقت وتمطَّى وعيناي تفتقدان رؤيته.

ابصرُ الرجال يساهمون في الاحاديثَ واشاهد بعضهم يخرج وآخرون يدخلون إلا وليد كان كمَن لا وجود له أو كأنه التصق داخل قاعة الاستقبال.

لم أرَ طلعته إلا بعد أنْ نشر الليل ظلامه واشتعلت المصابيح.

ابصرته فجأةً خارجاً صوبَ الحديقة التي كان في زاويتها مجموعة كراسي اتَّخذها بعض المدعوين الذين يفضلون الاحاديث الهادئة.

ذهب الى الحديقة فلحقتُه.. لأول مرة في حياتي امتلكُ الشجاعة على ملاحقة رجل بلا تردد ولا تهيُّب.. دنوتُ منه فابتسم. لعلَّه قرأ سورَ الاعجاب تنثرُها عيناي وحدث بفعل فراسته شغف تعرفي به.. واجهته:

"ومَن اعتاضُ عنكَ إذا افترقنا // وكلُّ الناسِ زورٌ ما خلاكا".

ابتسم أولاً ثم ضحك لمّا سمع:

"أتحبين المتنبي؟!"

كدتُ أقول: "أموتُ في شعره"؛ لكنني قلت: "لا يمكن لِمن يسمع شعره لا يُحبّه."

"عين الصواب!" قال مبتسماً؛ ثم "أنتِ من اتباعه كما أنا."

يكبرني بعشرة أعوام، نعم؛ إذاً فخبرته تعينه على الاكتشاف بسرعةٍ وبيقين.. لماذا حين تبدأ شمسُ الحب

بالبزوغ تتلاشى الاعوام ويتوارى الفارق الزمني؛ فقط تبقى رغبةُ التلاقي هي المتسيّدة، هي المهيمنة؛ هي من تعقد وثاقَ المحبّة وترسم تمهيدات اللقاء الذي سيتناسل عن لقاءات.. ألقيتُ عليه التحية كأنّا لم نتكلم قبل اللحظة فردَّ بأجمل منها... قال:" انّي اعرفك.. انت بنت عبد الهادي وإن لم اعرف اسمك.. ملامحُك قربتكِ من ملامحه أم انا على خطأ؟"... " لا.. لا.. انت على صواب " قلتُ وطار صوابي.. اغدق عليَّ نظرةَ اعجابٍ ممزوجة بابتسامة فيها من الجمال والدفء ما يزيل صقيعَ الرتابةِ في الحياة.. حياتي أنا وليست حياته.. قال:

"انا هنا لخمسة ايام قادمة؛ ثم أعود الى بيروت حيث عملي."

هل جاء كلامُه لإعلان قِصرِ فترةِ وجودِه في البصرة أم كان رسالةً لي لترتيبِ وضعِ لقاءات ستتم بيننا؟.. لا ادري سوى انني قلت: "غدا سأجيء لزيارة صديقتي العروس."، وكنت اكذب لأول مرّة. كذبة بيضاء لا عقاب عليها من اللّه.

ولا ادري كيف نطقَ متسائلاً: "في أي وقت

بالضبط؟"

يـا إلهـي. انـه يرمـي الكـرةَ بملعـبي ويُعلِـن بالصـوتِ الدفين أنْ سيلتقيني))..

دهـش حـزين لمـا قـرأ.. مـا هـذا؟ ومـن هـذه الـتي تبـوح بإعجابٍ فتلاحق رجلاً بمحض ارادتها بينمـا العُـرف يُقـر بمجتمعنـا أنَّ الرجـلَ هـو المغـامر الجـريء القـادر علـى الملاحقة؟!

انتظـرَ حمامـة؛ وخـالَ الـزمنَ هـرب، وخالهـا خرجـت وتركتـه وحيـداً إلا مِـن دهشـته؛ إذ غمـر الصـمتُ حـوشَ البيت والبلبلُ استكانَ لوجودِه في القفص. أراد ان يهمس باسمها كنداء حيّي ليُرسي روحَه على طمأنينـة وجودِهـا فاسـتثنى، وحـدس انهـا مـا زالـت في البيـت، فلـم يسـمع صوت اصطفاق الباب او غلقه حتى برويّةٍ.

كـان علـى وشـك اعـادة قـراءة الصـفحات مـن البدايـة عنـدما دخلـت حمامـة بصـينية صـغيرة وفنجـاني قهـوة مـع دلّة برونزية.

قالت تعتذر: "تأخرتُ عليك؟"

قال: "لا."، ويعني نعم تأخَّرتِ فعلاً، حتى لظننتُ انَّكِ تواريتِ كساحرةٍ.. ما هذا يا حمامة؟! ".. واشار الى الاوراق التي ما زالت بيده، والى جهازِ التسجيل والاشرطةِ الثلاثة.

قطبت حمامةُ حاجبيها، وترقرقَ على نحوٍ مفاجئ دمعٌ تلألأ بين الاجفان فأربكَ حزين؛ ما لبث أنْ انساب مجريين على خدَّيها السمراوين..

قالت:

"ماذا قرأت؟"

"هذه الوريقات الثلاث."

"اقرأ الثلاث الأخرى بعد تناول القهوة حتى أُجيبك."

وجَّه الورقات الثلاث الاخرى الى وجهه مع فعل احتساء القهوة وراح يقرأ:

((بدا قمراً وإن كانت السمرةُ تزحفُ الى محيّاه.. كان قمري الذي اشتريه واخبِّئُه بين كفيَّ واسقيه شهدَ أناملي.. يقولُ الثوبُ الاصفر الذي اعددتُه لحفلةِ المساء البسيني! هيّا البسيني، فالرجلُ هناك ينتظر. لا تجعليه

يحرق الايامَ بجمرِ اللوعة ولظى الانتظار.. هيّا.. وكان الثوب شعلةً تتوهج فيشعُّ بتأثيرها وجهي وتستنار دواخلي واتلمَّس قلبي بلبلاً يُغرَّد في قفصه ويعشق سجّانه الذي زجَّ به في حيّز من تقييد الحرية؛ واتلمس نظرات أمّي فخورةً بجمالي، سعيدةً ببهائي.. "صديقتك تزوجت، خطوتُك تلحق خطوتها ان شاء اللّه." وترفع رأسَها تتضرع إلى السماء وارفع رأسي فأواجه بابتسامة وليد يمطرها من عينيه السوداوين وشفتيه تهمسان: "أنا مَن يكون فارسكِ.. انا مَن تتضرع أمُّكِ للسماء كي تهبني اليك.." فاغمض عينيَّ واخفيه لئلاً يهرب او يتسلل من بين الرموش.

ذهبتُ مُسرعة اختصر الوقت من اجل الوصول الى بيت العروس من اجل لقائه هناك.. لابدَّ من اثارة اعجابه، من تلقّي دهشته، من استقبال ابتسامته التي لا تفر من وجهه.. ماذا سيقول، وبماذا أرد.. لأجمع كلمات الشكر وانثر شباك صيد سعادته بلقائي.. سأقولُها في حضرته، في جلاله، في فيض المودَّة:"قد شرَّفَ اللّهُ أرضاً أنتَ ساكِنُها // وشرَّفَ الناسَ إذ سوَّاكَ إنساناً".

استقبلتني العروس التي صارت صديقتي، وكانت ازدادت بهجةً عمّا رايتها بالأمس.. حدثتني عن ولهِ زوجها بها وتنامي حبّه اكثر ممّا قبل الزواج، ووعده لها بشراء مصوغات ذهبية تؤسِّس لجمالٍ جديد اسمه جمال ما بعد الزواج... تقول ذلك وقلبي يتلظى كطفلٍ يكوي قدماه اسفلت الشارع في ظهيرة صيفية قائظة. يسألني متى يطل وليد؟.. أين وليد؟.. وكان ان دخلت أُمُّ وليد.. امرأةٌ فارعةُ الطولِ بوجه ممتلئ وعينين واسعتين يشعُّ من حدقتيها ضوءُ ذكاءٍ وبراعةٍ وفراسة.. نهضت اغلب النساء يرحبن بها ويهيئن مكاناً متوسطاً بينهن، ولا أدري كيف انفلت سؤال احداهن عن احوال وليد وفي ما اذا هو سعيد لوجوده في هذه الزيارة فردَّت بشيء من الالم تخبرهن انه سافر منتصف ليلة أمس إلى بيروت اثر مكالمة هاتفية طلبوا من خلالها حضوره للضرورة القصوى.

سقط قلبي من شرفة السعادة الى هاوية الالم وأنا اسمع الخبر. هجمت عليَّ جيوش الكمد وساورني حزن ثقيل.. لم اتمالك نفسي، فاندفعتُ خارجةً بعد لحظات

متذرعـةً بانتظـار أمّـي لـي للـذهاب الى العشـار وابتيـاع حاجيات منزلية.

في البيت بكى الثوبُ الاصفر، ومعه بكيتُ.. تطوَّى وتكسَّر لحظةَ خلعته وبسطته على السرير ريثما اعلِّقُه في خزانة الملابس. كان اكثرَ حزناً مني فقد تأمل ان يشبع من نظرات وليد ويتلقّى عذيب الكلام اطراءً بروعة تصميمه ولونه وبراعة خِياطته... بكيتُ في غرفتي متجنِّبةً عيني أمّي ومعرفتها لعودتي السريعة وغيوم الاسى تحتشد على مشارف جفوني او تتكدس في عمق حدقتي.

سافر وليد ولم تُفصح أمّه عن زمن عودته. لكأنها تبغي رمي سهام الجزع والالم والاحتراق لتدخل قلبي نافذةً وبقوةٍ خرقاء وإن كانت غير مدركة لدواخلي ولواعجي وحمى انتظاري.

تكدَّر القلبُ وانا أضع رأسي على الوسادة تلك الليلة وقد تنبهت أمِّي إلى أنّي لم اضع لقمة من طعام العشاء في فمي. فقط السوائل ما دخل معدتي... سافر وليد!.. هذا يعني ان اشهر ستتوالى حتى يعود. وإنْ عاد فلن

تتكرر مناسبةُ حضوره بذلك التجمّع واللقاء الحميم مع الاصدقاء والفرصة المتاحة التي اشاهدها بها واتحدث وربما نضرب موعداً للقاء.. سافر وليد تاركاً اللوعة كروح مجنونة تطوف الدروب لائبة، حزينة، فاقدة شيئاً لن يأتي، لن تراه، لن تفرِّطه على اصابعها وتتغزَّل به.

في العمل، صباح اليوم التالي كان النهارُ ثقيلاً، والوقتُ يحاربني ببطئِه السلحفاتي، وتعامل المراجعين بجفاءٍ وتعالٍ، وايلائي عمل مضاعف وملفّات مُتراكمة ينبغي تدقيقُها والتوقيع على اتمامِها مع تحمِّل مسؤوليةِ حدوثِ خطأ قد يحصل. وانا المرجلُ داخلي، والذهن في أوجِّ ارتباكه، والدمُ في اعلى درجاتِ غليانه، والنفسُ في ادنى مستويات معنوياتِها؛ حتى اذا اوشكَ وقتُ العملِ على الانتهاء ولم يبقَ منه غيرُ ربعِ ساعةٍ رنَّ جرسَ الهاتف ووجدت مديرَ القسمِ يرفع رأسَه بحركةٍ تعني أنَّ الاتصالَ يخصُّني.. هرعت بين جزع يكبّل قدمي ويثقل حركتي واستفهام مَن يكون المتصل.. جاء صوتُ صديقتي العروس مليء بالتحيات والدعوة على الحضور عصراً إلى جانبها، وخبر جاء في نهاية الكلام يؤكد ان

من يحب يأتي. فجمع الامس سيلتم الليلة؛ حتى وليد عاد من بيروت ولم يصرف غير ليلة واحدة هناك لكي يساهم في حفلة سعادة صديقه.. شهقت من مكاني وتدفقت انفاسي تملأ فضاء سماعة الهاتف:

"تقولين أنَّ وليد عاد من بيروت اليوم؟"

جاءني الصوتُ مشوبُ بالدهشة:

"نعم هو الآن مع الاصدقاء في بيتنا.. تعرفينَ وليد؟"

كدتُ أطلق هتاف الروح: كيف تقولين أعرف وليد؟!.. والقلبُ قفزَ الآن وانتِ تعلمينني بخبرِ عودته بهذا الوقت الخاطف؟.. كيف لا اعرفه وانا بانتظارِه وقد كان سفره المفاجئ طعنةً في الصميم ثم نفذت الى البطينين والاذينين!.. "قلتُ محاولةً اظهار البرود في ردّي:"سمعتُ عنه!".

أول من تلقّى خبرَ عودةِ وليد الثوبُ الاصفر.. ركضتُ الى الخزانة بمجرد دخولي البيت.. رفعتُه من مثلثِ تعليقه واتَّجهتُ الى المرآة، وقفت وسربلته بلون بهرجته وتصميمه.. درتُ به، وهمست: "سأرتديكَ بعدما ظننتكَ

لا تمس جسدي طالما أنّه بعيد ولن يأتي الا غب اشهر، وقد يمتد لعام."

قريباً من باب بيت العريس التقيته.. التقيته قبل أنْ يدخل.. تبادلنا التحيةَ ووجدتُ في عينيه شوقُ كمن يريد القول "ما عودتي الخاطفة الا لأجلِك". ولكنّه قال ذلك بشفتيه لا بعينيه. كان اكثر شجاعةً، اكثر صراحةً، أكثر شوقاً.. قالت عيناي فرحتين وشاركهما القلب: "أحقّاً عُدتَ من أجلي؟!".. إني إذاً لغيمةٍ بيضاءَ تتباهى بالنصاعةِ والألق أو كطير كناري يُتقن أنواع الزقزقات للإعلان عن سعادتِه الفائقة.

اقترح الاستمرار في طريقنا متفادين الدخول الى بيت العريس، فلنا عودةٌ اليه.

وكان لنا ما اردنا..

اخذنا أيسرَ الطرق للخروج الى الكورنيش... هناك تلقفنا الرصيف واحتفى بنا شط العرب. خلَّفنا وراءنا الجسر العابر الى التنّومة واتجهنا صوب السياب الذي ينتظرنا. هرع الينا اكثر من مصورٍ ليلتقطوا صوراً فوتوغرافية لنا. لكأنهم ادركوا رغبتنا في تأرخة أول

لقاءٍ يكون فيه السياب شاهداً؛ ونكون غداً حاضرين لاستلام الصورة.

جلوسُنا على مصطبةٍ حدثٌ لابد أنْ يحفر زمنَه في جدار ذاكرتنا ليكون ذكرى نستعيدها كلما جدَّ الوجدُ واستدعى العودةَ الى الوراء.

رأينا شطَّ العرب يَفتح ذراعيه مُرحِّباً، والسياب يحرسنا من أعين الفضول ويدعونا مع حَيان الغروب الى النهوض والتحرّك لإحدى الكازينوهات فنتناول العشاء هناك على هيامِ أم كلثوم منطلقة بتراتيل الحبِّ الحيي والثمَل الجميل: "هل رأى الحبُّ سكارى مثلنا".. سكرٌ تجاوزَ حدودَه فدخلَ ارضَ الثَّمل، ورأيتُ وليد يقتنص فرصةَ اتكّاء رأسي على كتفه فيمنحني قبلةً خاطفةً على خدّي، وامنحه تأوهاً سريعاً ومفاجئاً:

"آآآآه وليد!.. الناسُ من حولنا؟!"

"لا عليكِ! الليلُ غطّى علينا والقبلةُ خاطفة."

عشنا نُعماء ذلك الليل، وسِحرَه، وحنوَّه، ورقّتَه، ودعابتَه، وحُسنَ استقباله، وخفّةَ توديعه.

وكانت ليلةُ الحلم الذي سيتحقَّق فيكون المناسبة التي سيذكّرُني بها وليد كلما هاتفني من بيروت: اما زالت سخونة القبلة على الخد الجميل؟! فيأتيه الردُّ كركراتٍ لا قدرة لي على لجمها او كبحها او اغتيالها؛ فأردُّ بهمس السعداء:

"نعم، ما زالت، يا وليد، مقرونة بحرارة انفاسك."... وأكاد أسأله:

"القبلةُ حزينةٌ تريدُ من يسعدُها بقبلةٍ رفيقة".. لكنّي اتمالك النفس فاتركُ الانفاسَ لهاثاً يُكمِل الجواب.

جئنا في اليوم التالي.. فاستلمنا الصورةَ التي أظهرتنا كأننا مقترنَين.. قال: "لكأننا شخصان متزوجان."..
قالها واعتذر عندما قرأ مسحةَ خجلٍ كشفتها انحناءة رأسي إلى الارض.

صرفنا ثلاثة ايام نلتقي فيها.. نعيد سيناريو اللقاءات السابقة:

نلتقي عند شط العرب والسياب خلفنا يحرسنا؛ وصدى اغانٍ كانت تأتي من بعيد، لأم كلثوم الحصة

الاكبر منها.."ما بين بعدك وشوقي عليك / وبين قربك وخوفي عليك..دليلي احتار" ومن مكان ابعد يتناهى صوتُها هاتفاً "هل رأى الحبُّ سكارى مثلنا / كم بنينا من خيال حولنا / ومشينا في طريقٍ مقمرٍ / تزهو الفرحة فيه قبلنا."

نعيش نعماء الليل، يوشوش في آذاننا: "يا احلى من احلامي / يا أغلى من ايامي".

ولم يبقَ إلا يومٌ واحد على عودته الى بيروت.. ولم تبقَ إلا ساعات ليطير فيتركَ قلبي مطاراً موحِشاً.

ذلك اليوم الواحد شهد التغيّر الحياتي المَهول. تغيرٌ نقلني من ضفةِ الحلم إلى ارض الواقع عندما طُرقت بابُ بيتنا والساعة تقرب من الخامسة عصراً فتتوجَّه أمّي لفتحه فتواجه بأم وليد ترافقها امرأتان يقاربنها عمراً لا يتجاوز الستين... كانت المهمّة تاريخية والحضور يعبر عن فحواه... "وليد اعجب بابنتك مريم، وهو الآن ينتظر الرد قبولاً او رفضاً.". وتلك الايام تعتمد التقاليد التي لا يمكن تجاوزها، اذ جاء ردُّ امي أنْ لا أمرَ بيدها انَّما بيدِ مريم.

شربنَ الشاي والحلوى، وتناولن باحاديث متداخلة وليمة المودّة واعلان فرحة التقارب عبر التزاوج والاقترانات.

وهي تسمع العمَّة مريم تتحدث بشوق فتاة كلُّ املِها امتلاك حبيب رسمته على قماشة مخيلتها بكل اتقان وجعلت منه الفارس الذي يحقّق مشيئةً وضعتها في اعلى تخوم الرغبة لم تتمالك حمامةُ اتزانَها فألقت بنفسها في بئر الكمد؛ وتوجهت تبكي بكلِّ حرقةٍ وقد عادت اليها ذكرى ساعات تدهور العمّة في آخر يوم من حياتها متمددةً على الفراش الابيض الوثير جَسداً هزيلاً فقدَ الكثير من مواصفات المخلوق البشري فبانت كهيكل عظمي إلا من عينين تبثان بريقاً آخذاً بالأفول تجاهد لجعلِه يتضرَّع، وتنمُّ من بين شفتيها الضامرتين رجاءُ انْ لا تنسى الوصية، أنْ لا تُخلف العهد الذي قطعته لها؛ وحمامةُ تضع الكفَّ النحيلةَ العجفاء بين كفّيها الصغيرين وتحني رأسها فتهمس في اذنها: اعاهدك، يا عمَّتي حتى لو بقي يومُ واحد من حياتي سأنفذ طلبَك." فيفزُّ، تلك اللحظة، بقايا الألق الشحيح في العينين

الذابلتين، ما تلبث أن تغمضهما بسبب الانهاك ونفاذ المقدرة على النظر.

تغادر حمامةُ الغرفةَ وقد انفلت الدمع مدراراً وبدفق مجنون؛ فقد ضاق صدرُها واوشكت على الاختناق تاركةً حزين يتولّى تفريغ الكاسيت ليستحيل اسطرَ تحكي قصةَ امرأةٍ اغتيل حلمُها بجناية قاسيةٍ عاتيةٍ وبلا أدنى شفقة.

اتجهت الى المغسلة وراحت تلفظ ما تناولته كعشاءٍ مبكر.. تجحظ عيناها فتريها المرآة انها في اقسى حالةٍ، وأسوأ صورةٍ... تشعر انها حسناً فعلت عندما اطلعت حزين بمهمتها ووعدها الذي قررت تنفيذه بكل ما اوتيت من اصرار فقد تمرض هي الاخرى وتموت قبل اتمام تفريغ الكاسيتات ومعرفة محتوياتها والوقوف على ما فيها من اسرار.

وكان حزين شغيفاً لاستماع ما تقوله العمّة وتفضي به وشفيعاً لحمامة التي تتلاطمُها اعاصيرُ الحزنِ الجارفة وموجاتُ القلق العاتية.

ضغط زرَّ التشغيل؛ وكان الشريطُ قد أُفرغ ثلاثة

ارباعه، فراح يدون بما اوتي من انتباه يساوره شعورُ اكتشاف كنزٍ معلوماتي لحياةِ امرأةٍ عاشت اعواماً طويلة هنا في هذا البيت. وفي هذا البيت قالت كل هذا الكلام على هذه الاشرطة. وبدا له انها كانت تتوخّى السرعة في الحديث اذ كانت تستمر حتى والشريط المقدَّر له ساعة عمل واحدة فتضع شريطاً آخر وتواصل الحديث؛ يصاحب ما تقول انفاس متسارعة ولهاث يكاد يقطع تلك الانفاس وصمت يأخذ الثواني الطوال؛ ما يدلل انها كانت عليلةً بشدة، وانّها تسابق الزمن لتقول قبل مجيء المختلس ليقطع انفاسها ويتركها جثّة فتفقد اغلى أمل في البوح وايصال قصّتها بمأساتها ومعاناتها وصبرِها وجلدِها وقوةِ شكيمتِها وحسنِ صنيعها وطيب خلقِها وجمال معشرِها لمن يستطيع تجسيد ذلك في حكاية تواسيها حتى وهي في القبر مُجسِّدةً في الوقت نفسه ظلم الانسان لأخيه الانسان... لقد بكى الجميع وهم يرونها تغادر عليلة الى مسقطِ رأسِها بينما تمنّوها بينهم كما عاشت السنينَ كريمةً أبيّةً مُحترَمة.

بعدَ ساعةٍ من الجهدِ عادت حمامة بعينين جاحظتين

فبدت كمَن نزعت الكثيرَ من روحِها وفرَّطته مع الدمعِ المتدفِّق من مآقيها.. عادت لتجلس على كرسيها وقد أتت بفنجاني قهوةٍ من جديدٍ احتسياه، فخفَّ التوتِّر في نفسِها بينما انبثق سؤالٌ في دواخل حزين راح يُسمِعه لحمامة:

"هل تزوَّجَت مريم بوليد.. اقصد هل تمَّ الزواج وعاشَ الاثنان في سعادةٍ كما تُختَتم قصص الرومانس وجودها؟".

لم يأتِه الرد بنعم مقرونةً بديباجةٍ من مصطلحاتِ السعادة وعدد الاولاد وبناء الأسرة والترحال المُستمر قصدَ المتعةِ وجني الهناءَ انَّما بسيلين مِن الدمع مُجدَّداً ما روَّعَ حزين وارهقه.. "لا تقولي، يا حمامة أنَّ الزواجَ لم يتُم، أو انّهما انفصلا بعد حبٍّ.. ارجوكِ لا تقولي دخلَ عاذلٌ بينهما ففرَّقَهما أو تدخَّلت أمُّه بعدما خطبتها برغبةٍ ثم انقلبت الرغبةُ الى عِداءٍ كالذي يحصل في كثيرٍ من الزيجات."

لم ترد حمامة بما يُشبع فضولَه، انما قالت، وقد وجدت انها بكت كثيراً وانهكت جسدَها واتعبت

روحَها: "تأخَّر علينا الوقت؛ ما رأيك في عمل عشاء نتناوله سوياً؟"... ردَّ معتذراً: "لا.. لا! عليَّ العودة الى البيت".. ولم يكن ليريد العودة فعلاً إنَّما ليزفر آهاتٍ تراكمت في صدره جراء ما قرأ ويسحبُ شهيقاً يبدِّد غيومَ الكدر القادِمة بهياجٍ وهوَس.. قالت:

"إذاً غداً أرجو حضورك بنفس الوقت الذي حضرنا به هذا اليوم.. أُطرق الباب وسأكون بانتظارك.. لدينا مهمّةُ نقل الكلام الذي أحسبه مهمّاً إلى الورق."

نهض، فنهضَت وراءه كي تودّعه وتغلق الباب؛ لكن قبل ذلك سحبته من يده الى زاوية الحوش فأرته كوة في الجدار. لم يفهم مرادها، وكان على وشك الاستفهام عندما اخبرته: هنا كان جهاز التسجيل والاشرطة مخبأة. لقد فعلت عمتي ما يفعله ذوو الاسرار المهمّة.. لقد وضعت في حسبانها ان سيأتي يوم لابدَّ أن يظهر سرّها للعلن تاركةً للتاريخِ تقديرَ تضحيتها، ومن ثم انصافها.

أكبر حزين، بعدما سمع من حمامة بعض التفاصيل، في العمّة مريم قدرتها على مواجهة الصعاب

وتكيُّفِها العيش بما يجعلها صامدةً لا يأخذُ منها الضعفُ مأخذَه ولا الانهيارُ مرادَه.

وفي لحظة توجهه نحو باب الخروج شاهد حزين عبر نظرةٍ سريعة الى غرفة نومِ حمامة مجموعته الشعرية (السماءُ ترقصُ وجعاً). شاهدها على قاعدة المرآة وكانت أقرب الى التمزُّق ما يدلل انها قُرئت لعشرات المرات، بل كانت تنتقل من مكانٍ لمكان داخلَ البيت؛ فعليها شاهدَ صبغةَ كحلٍ (كانت تقرأ فيها فتبكي)، وعليها لمح بقعةَ سَمن (حتى وهي تُعدُّ وجباتِ الاكل تقرأ) مثلما أبصر قلماً ظهر رأسُه من بين الاوراق (لابد انّها كانت تستخدمه لرسم اسطر تحت ابياتٍ اعجبتها او دوّنت ملاحظات خارج متن الشعر).. أراد ان يسألها إن كانت قرأت منه فتراجع مكبوحاً بتقريع دواخله له، مدينةً فضوله، ورافضة الارتماء في هوة البله عبر اسئلة لا وجوب لها، وترك الكلام الذي يراه اجابة لتفوه هي به لا هو.

(٧)

خرج حزين تاركاً بيتَ حمامة كالمسحور ذاهلا، ومتذبذباً، ومشوَّشاً.. خرج والصورةُ التي التقطتها عينه قبل خروجه تستقرُّ على المسجِّل والاوراق والمنضدة واكواب القهوة وحزن حمامة و استحلافه جعلَ الأمر سرّاً لحين الانتهاء من تسجيل الاشرطة.. خرج حزين وصورةُ صديقه الرسام تتمثل امام عينيه. وقف الرسامُ بوجهه مستفهِماً. لكنَّ حزين مالَ عنه وخلَّفهُ متسمِّراً، حتى اذا استدار ليعتذر منه لم يجده.. اكتشف أنَّ خيالَه هو الذي صوَّرَ حضورَ الصديق... هو يدري أنَّ صديقَه منهمكٌ الآن في حثِّ موهبته وتحفيز الالوان على بناءِ لوحةٍ تليق بمقامِه في معرضِ العمر.. يدري أنَّ صديقَه يطبع وجهَهُ على جزءٍ من قماشةِ اللوحة ليترك له شيفرة او وجوداً خاطفاً تماماً كما كان الفريد هيتشكوك يظهر في مُعظم افلامِه في لقطةٍ ويتوارى جاعلاً من ذلك الظهور الخاطف شيفرةَ حضورٍ لا تُنسى.

تجاوز الازِّقةَ المتداخلة دون الشعور باجتيازها.. الشارع مَن كشفَ له ذلك.. الشارع كان حاضرا حقاً وليس

كالحضور الكاذب لصديقه الرسام.

لم يتَّجه حزين الى بيته، بل سلك الدرب الذي يأخذه الى شارع الاطباء. مرَّ من امام مكتبة كنوز التراث المغلقة تلك اللحظة فتذكّر كلام صديقه الرسّام يخبره انه شاهد حمامة تلج المكتبة وتسأل عن مجاميع شعرية له.. تحسّرا.. لو أنه هو الذي رأى حمامة لكان دخلَ معها في حديث عن مشاريعه الادبية، عن مجاميعه الثلاث التي تنام في حضن الجارور تنتظر فرصة نشرها على الورق؛ كان سيقول لها انها ابنائي، يختنقون في فضاء الجارور الضيّق، وانهم في شوق لأن تتلقفهم الايدي، وتحتضنهم العيون، وتشبع منهم الذائقات التائقات للعذوبة والجمال.. كان سيقول أبنائي خلاصة روحي، جملة مشاعري، نتاج موهبتي؛هل تعلمين أنَّ الموهبة بنتٌ جميلةٌ فاتنةٌ وساحرةٌ تريد مَن يطلقها إلى فضاء الابداع لترسم جمال الكون وتعرض فتنة الخالق مُجسَّدة على الورق أسطرَ، واوراقاً، واغلفةً فتتشكّل كتباً هي مزامير لقداسة الحياة، وأناجيل لرقّة السماحة، وآيات لعشاق يؤمنون بأنّ التغيير من سنن

الحيـاة وإنَّ السـتاتيك ديـدن يكـرس الجمـود فيجلمـد العقل ويهشّمه.

دخـل شـارع الكـورنيش وقـد سـاوره شـعور التمشّـي جوار السور النيكلي الذي أنشئ حديثاً ليكون افريز اطلالةٍ محببّةٍ تجعل المُطل يبصر الفرات جسداً ينساب يُذكّره بموضوع قرأه واثار شجنه عن لغة الجسد التي شرعت الدراسات الحديثة تتناولها كموضوع لم يكُن يُثير الاهتمام قَبلاً أمّا الآن فاللغة هاته هي من عِداد الاثارةِ المصحوبةِ بالتعبيرِ الامثل لأعضاءٍ يكمُن خلفَ تحرُكِها ليس جهدُها الوظيفي فحسب انما صورتُها الجمالية الباعثة على اكتشافِ الفتنةِ وتكريسِ السِّحر.

طالع النهرَ الذي بدا متدثراً بالعتمة، تستفزُّه من الضفة الاخرى مصابيح تحاول ايقاظه فلم يستجب. تَذكَّره!.. كان نهراً هادراً زمن الشتاء، ومجنوناً أخرقَ ايام الربيع ثم هدّيّاً طيّعاً في فصل الصيف، وخاملاً لا يبذلُ جهداً في حركةٍ خريفاً. تَذكَّرَهُ ملاذاً آمناً انتهى فيه الكثيرون ممَّن وجدوا في أعماقه نهايةً لحياتهم ومحققّاً لرغباتهم بعدما تذمروا وضجروا ويئسوا،

فتهالكوا، فتقهقروا، فقرروا.. وكان القرارُ استقراراً دائماً في حضن اليم.

تذكَّر كُرَه الناسِ للنهر عندما يبتلع اعزاءَهم ويخبئُهم لأيامٍ قبل ان يطلق سراحهم وقد ترك للأسماك ومخلوقات الاعماق نقرَ عيونِهم وقضمَ اطراف انامِلِهم بينما يرى هو ككاتبٍ وحالمٍ دفءَ النهر ورأفته وحميميته مضيافاً لمن طرق ابوابه رغبةً وتوقاً للتخلّص من أسرِ قيودِ معضلةٍ خمَّنها لا فكاكَ منها ولا حلّ إلا أنْ يحلَّ ضيفاً في الاعماق.. تذكّر شوقيّة التي خرجت من بيت اهلها مُجبرةً على الزواج من ابن عمّها المعتوه وقد فرَّ حبيبُها الذي اتَّبع العرفَ في التقدم لها فاهدرَ اخوانُها دمه فتوجَّهت الى الفراتِ ليلاً، هابطةً السلم المرمري ورافلةً على نديفِ الرمل، ومتسللةً الى حضنِ النهر. هناك دخلت مملكةَ الماء فاستُقبلت، بحفاوةِ السكون، جسداً يبغي تطهيره من ادرانِ البغضِ البشري وقسوةِ الانسان. وفي الصباح أُنبئ المتطلعون من أسيجةِ الشَّدَه والدَّهش على عباءةٍ نسائية تغطي ثياباً وملابس داخلية، فقد دخلت الماء عاريةً إلا من شوقها للاستقرار

في الاعماق والتطهر بالموت المُنقذ من دنس البشرية البغيض... تذكَّر أنه قرأ مرةً روايةً بطلتها فتاة تُنتهك عذريتها، فتحمل، فتعيش الوحدة في بيت تنبذها الاعين؛ وحين يأتيها المخاض تترك وليدها السفَّاح في البيت يطلق الصراخ بينما تتوجه الى النهر فتلجُّه محفوفةً برغبة الدخول الى عالمه حيث تلتقي بمخلوقاته التي كانت تخرج لها وهي طفلة فتداعبها عند الجرف، وعلى حافة رمل الضفاف.

تذكَّر ذلك الصبي الوحيد لوالديه وقد اغراه رفاقه بمصاحبتهم فناداه النهر ان يقترب؛ وإذ لم يلبِّ النداء بعث هذا الغاوي بهمسه وسحره فاغراه فدخل وجلاً ما لبث أنْ كشَّر النهر عن انيابه فابتلعه دون ان يضع في قلبه رحمة بالوالدين اللذين هجما على النهر بعد اسبوع من ابتلاع ولدهما فانشب براثنه في الجسدين اللذين قررا السياحة في ثناياه بحثا عن فلذتهما فابتلعهما بقهقهة ظل صداها نواحاً استمرت تطلقه المدينة لسنين طويلة.

استمر حزين في سيره.. استمر مفضلاً مكامن العتمة

وهارباً من ضوء المصابيح؛ يريد لروحه مشاركة حمامة في حزنِها، وكمدِها، ومتأملِاً ما كتبه على الورقِ من افضاء جاء من بابِ اعترافِ صاحبة الصوت أو افشاء الذكرى.. عبر الشارع الى الرصيف المقابل؛ إلى حيث مقهى ليلية وزّع صاحبُها كراسي ومناضد على الرصيف جاء بها بسيارته البيك أب التي يركنها على مقربةٍ بعدما اغلق اصحاب معارض الكماليات وبيع الاحذية ومعارض العطور الشرقية ومحلات بيع الاكسسوارات وراح يقدم خدماته لزبائن يقضون الليل سهراً إمّا بواجب رسمي كما هم شرطة النجدة والدوريات الليلية أو لمن جفاه النوم ودواخله تتنغم مع ام كلثوم المردِّدة بلسان المواساة: (اهل الهوى يا ليل فاتوا مضاجعهم / وتجمعوا يا ليل صحبة وأنا معهم).

اتخذ حزين منضدةً طارفة وندهِ على القهوجي ليأتيه بكابتشينو ساخنة يروم منها ترطيب بلعوماً جفَّ ولساناً تخشَّب.

في بيت حمامة كان بعد كل صفحة يدونِّها يكاد يبكي.. آلمه أنَّ صوت المتحدثة كان يتقطع، ويأخذ

الصمت حيزاً يعقبه بكاء حار وحاد، مصحوباً بحشرجة ثم أنّة توحي كأنها النَّفَسُ الاخير لمخلوقةٍ جزعةٍ، ومتكدرةٍ، ومتألمة.

ورغم انَّ الليل تجاوزَ انتصافَه إلا أنَّ حركةَ الكثير من الناس لمّا تزل نشطةً، وإن بدا انهم ليسوا ممَّن يمكن مشاهدتهم في النهار. فهؤلاء الليلُ عندهم هو النهار، هو وقتُ العمل، هو ميدانُ الحركة.

نهضَ بعدما شعر بالارتياح وحصدَ ألفة الرواد القادمين من جزر الوداعة ليتحدثوا عن الرضا بما مقسوم والطيب بما يأتي كما لو كان احدُهم يعرف الآخرَ من قبل.. اتخذ الدرب الذي يقود الى السوق المسقَّف.. المصابيح تُدلِق ضوءَها على ارضية السوق الفارغة ببهرجة افتقدت المتسوقين وزحمتهم ساعات انهماكم في التطلع سعياً لحيازة بضائع جاءوا من اجل شرائها. وقف عند فم سوق الصفارين فأبصر أباه يمسك بالمطرقة ويدق بضربات منغمة على حافة قدر نحاسي اوشك على الانتهاء من صناعته ولم يبق سوى جليه وتبريقه، ثم تسليمه للمتعامل معه. ينطلق بريق الزهو من

عيني أبيه لحظة الشعور باكتمال العمل وجهوزية القِدر للاستلام.. لم يكن هناك الاب.. الاب رحل منذ عشرة اعوام تاركاً الدكّان لمساعده بعدما اكتشف بابنه حزين بُعده عن المهنة وتمسكه بعمل وظيفي يضمن عيشاً دائماً بينما الاعمال اليدوية ليس لها ضمان أو تقاعد في أواخر العمر.. رأى دكان رحمن شلال بائع الاعشاب وتوجّه الريفيين اليه لشراء ادوية عشبية بأسعار زهيدة مقارنةً بأجور الطبيب والصيدلي بينما الشفاء واحد عند الاثنين.

في البيت نام حزين على قلَقٍ. يناجي الليل كي يسرع في خطوه ويلتهم الساعات، فهو في شوقٍ للاطلاع على ما يحتويه النصف الثاني من الشريط الثالث.

(٨)

بعد العشاء وحسب الموعد توجَّه حزين الى بيت حمامة.

نقر على الباب نقرات اتفقا عليها فوجدَ حمامة تفتحه. ايقن انها كانت تقف خلف الباب بانتظاره؛ بل وخمّن انها كانت تمسك الاكرة، فبمجرد الشروع

بالنقر تكون قد واربت الباب.

كانت في شوقٍ له مثلما في توقٍ أكبر لتدوين ما في الشريط، فقد قررت عدم تدوين كلمةً واحدة مما تقوله العمّة دون ان يسمعها حزين ويخطّها بقلمه.

لقد قضت معظم وقتها تقرأ اشعاره وتستمتع بصورها يحدوها شعورُ انها قصائد كتبها حزين لها مع ان التواريخ في نهاية القصائد تشير لأزمنةٍ لم يكن حزين قد أبصرها بعدُ.

كانت قد هيأت مستلزمات إعداد القهوة مسبوقة بقطع من البقلاوة جلبتها معها لقتل المرارة التي ستتوالد مع استمرار الاستماع لتراجيديا العمّة ومأساتها التي كانت خزينة في صندوق الذاكرة وحسناً فعلت حين سكبتها على الاشرطة قبل رحيلها.

وضعت اصبعاً على نابض التشغيل فراح قلم حزين يدون:

"استفهمُ متضرعة: أأدخل يا سمي الروح.. أأدخل يا وجه البهجة.. أأدخل يا فيضاً من وداعة؟ أساقني قدري

كي أكون ظلا لكَ لا ارغب في مفارقتِه أم انا من سقْتَ القدرَ ليكون طوع رغبتي في ملاحقتِكَ.. كنت رأيتك ترتدي بدلة زرقاء بقميص ابيض وربطة عنق سمائية يقفز في وسطها دولفين بخيوط حرير لامعة بحركة نزقة وكان حذاؤك الاسود لامعاً لا غبار عليه.. "حبيبي يجمع البهاء في طلَّته." قلت.. " حبيبي يرفل على جيشٍ من انغامٍ تُظهر اتزانه.. حبيبي يدعو الحمام الابيض ليهفهف فيرسم لوحة تفاؤل ترينيي البصرةَ مدينةً مائيةً رائقةً وحيّية كالبندقية الايطالية."

أفرد ذراعيه ليحتضنني، مردِّداً " إذا شئتُ حفَّت بي على كلِّ سابحٍ // رجالٌ كأنَّ الموتَ في فمِها شهدُ "... خيّل لي أو شبّه انه يجلس على كرسي ملوكي، يؤشر بإصبعه فيتحرك جوقُ منتظرين شغوفين لأداء خدمةٍ، لتحقيقِ واجب. لكنَّه نهض. هبط درجاتٍ من شوقٍ لينتصب اولاً ثم ليعدو راكضاً كطفلٍ يرمي نفسَه بين ذراعي أمّه. "حبيبتي.."."حبيبي!"

طيور الرغبة طارت.. رفرفت بأجنحةٍ من هواء، من حرير، من جذل.

اخذني بذراعيه فارتفعت قدماي الى اعلى.. طرتُ!!..
لفَّ بي مرتين او ثلاث ثم أنزلني أرضاً فإذا بي اهبط ببدلةِ عرسٍ بيضاء ثلجية وقبعة كبيرة واسعة وعلى الارض مسَّ الكعبان الابيضان العاليان الارضَ المرمرية؛ واذا بي في غرفةٍ اذهلتني بهرجتها بما احتوت من أثاث فاخر وستارة حرير محفوفة بالساتان البرَّاق ونافذة ستطلعني في الصباح على حديقةٍ يحتشد فيها وردُ الجوري الدموي والوردي.. قالت لي الساعات انني اصبحت زوجة وليد.. حظٌّ خرافي، وامنياتٌ قادمة من محفَّات الحلمِ الرائق.. مرةً واحدة اصبحتُ زوجةَ لوليد؛ وكرَّة واحدة نتبادل القُبل ونقول للسعادة استقرّي في مخدعنا؟! يا للروعة!... سعادة دامت شهرين من عسل ملوكي تتراجع لذاذات الطبيعة امام حلاوته وبلبل في قفص يقرأ لنا كل صباح قصيدةَ الشوقِ المتبادل والهناء المتراغي.. شهران كان فيهما وليد بستانَ طيبةٍ وفضاءَ نقاءٍ وحديثاً لا يُمَل.

شهران؛ وما بعدهما اكتشفت وليد يزفر همّاً، ويطلق طيورَ قلقٍ اسمع خفقَها فارتد اسأله عمّا به، وما

يعاني.

لم يكن وليد من مثلِ اولئكَ الذين يخفون عن زوجاتِهم الأسرار، ويظهرون بوجهٍ ليس كالذي هُم فيه قبل الزواج.

كانت زيارات الاصدقاء لا تنقطع، خصوصاً ساعات الليل الاولى حيث انهمكُ في إعدادِ الشاي وتهيئةِ معجَّناتٍ يأتي بها من باعةِ الحلوى في العشار، واجدُ رغمَ التعب والارهاق لذّةً في خدمة وليد واظهار حياته بعد الزواج اكثرَ سعادةٍ وانفتاح.

بانتهاءِ شهرين ونصف كان فيها يديرُ عبرَ الهاتف مكتبه في بيروت طلبَ تهيئةِ حقيبتِه على امل ان يصرف شهراً ويعود.

وسافر وليد اول سفرة بعد زواجنا.. سفرةٌ كانت ثقيلة علينا نحن الاثنين رغم ان الهاتف كان يدق مرتين: الاولى في الصباح، والثانية في المساء نتحدَّث ونتحدَّث؛ والحديث طويل.

بعد زيارتين لحظتُ الاصدقاء ينسحبون عنه؛ وإنْ

حدث وزاره صديقٌ فلفترةٍ قصيرةٍ جداً. يخرج بعدها متكلِّفاً كأنَّ في داخله شيئاً يخفيه.

انسحابُ الاصدقاء وتواجده وحيداً اثار فيَّ مخاوف جمّة، جاء انجلاؤها عندما كاشفني بمخاوف توجّه البلاد على عنجهية الرئيس وتهديده بعدما تغيَّر حكمُ الشاه في ايران وجاء حكم اسلامي إلى حرب اذا اندلعت فلا تنتهي بالمدى المنظور.. الصحافة اللبنانية تلمّح عبر نتف من الاخبار، وعبارات من الرؤى أن العراق مقدم على حدث كبير. كل ذلك لا يصل الى العراقيين. فسياسة الحكومة وقائدها مبنية على الكتمان... ستكون حرباً مدمِّرة، وتكون البصرة على مرمى النار والخطر، فهي الاقرب الى تلقّي الطعنات والوجع والموت.. وهذا ما يستدعي التحرك منذ البدء واظهار مناهضةً لما سيتخذه هذا الاهوج.

ظل وليد يقرن كلمة الرئيس بمفردة الاهوج في مجمل احاديثه، حتى انني نبَّهته لخطورة ترديدها.. وجدتُه مصمِّماً على المواجهة؛ يشحذ الاصدقاء ويدفعهم الى التكاتف من أجل تشكيل جبهة معارضة لما يخطط

له الرئيس، تتحرَّك بسريّةٍ وكتمان وتستخدم المنشورَ الورقي والاخبار التي تسربها الى الوكالات الاجنبية بغية تنوير الرأي العام عمّا يجري وما سيحدث.. وجدتني إزاء هذا البوح شريكة لوليد في الاسرار، شريكة في الاستماع والمناقشة، شريكة في نقل الاسرار وتحذير مَن يحتاج لتحذير لئلا يسقط في براثن سلطةٍ لا ترحم.

بتوالي الايام تكشَّفت لي بعض الخيوط، خصوصاً وأن هناك من ابصر وليد في سيارته الكرونه الزرقاء برفقته صديقان من الشبكة يدفع برأسه من النافذة ويبصق على صورة الرئيس الكبيرة التي نصبت قبل اسبوع في ساحة سعد فكان ذلك مدعاة لمراقبته... وإذ كرر المحاولة اتُّخِذَ قرار تصفيته.

لا اعرف كيف وصل خبرَ القرار الى وليد الذي اختفى، ولم يستطع الفرار الى لبنان حيث كان مقرراً السفر بعد يومين.. اختفى دون ان اعرف مكان اختفائه ومكمنه.

اختفاؤه ولّد حالةً من الاستنفار والمضايقة لي ولأفراد عائلته.. ولم ينجُ من تلك المضايقات حتى اقربائه من

الاطفال في المدارس والطرقات. فكثيراً ما كانوا يعودون الى البيت صارخين والدماء تنزف من رؤوسهم جراء حجارة تُرمى من خلفهم فتصيبهم وتجعلهم ينزفون او يتلقَّون الصفعات والركلات من فِتيةٍ يكبرونَهم ومن غيرِ سكنِهم دون ان يبدر منهم سلوك يستدعي الفتية الاشقياء الى سوء السلوك."

صمتٌ أخذَ ثلاثَ دقائق؛ فساور حمامة وحزين ظنَّ انتهاءِ الكلام.

ثلاثُ دقائقٍ من الصمت؛ اعقبهُ نشيجٌ صدم الاثنين.. ذُهلا وجَعلا ينصتان باهتمام لما سيأتي.. نشيجٌ متقطع؛ ثم تلاه بكاء حاولت كتمه وتضئيل درجة علوِّه. بدت كأنها تخشى وصوله الى الجيران.. قليلاً وامتلكت رباطة الجأش.. لحظات وعادت تتكلم:

"غاب وليد ما يقرب من الشهرين لم اسمع عنه.. ولم اسمع منه ما يضعني عند مرسى الطمأنينة فقط رسالة قصيرة جلبتها لي زوجة أحد اصدقائه هرعت الى فضِّها وقراءتِها:

"مريم؛ لابد لي وانا اكتب لك بائحاً بحبّي.. الفراق

الاجباري لا يثنيني عن حبِّك والتوجّه اليك.. الليلُ كله اصرفُه لكِ، استعيد كل ما جرى بيننا، استعيد تلك الابتسامة التي بعثتِها لي كبرقية قليلةٍ الكلمات لكنْ كثيرة المعنى.. استعيدها ساعات الليل.. الليل في هدوئه ورقّته ومجاراته لي في رغبتي التحاور معكِ، مع طيفِكِ. لكأنك تجلسين معي. هكذا يحنو عليَّ الليل فيأتي بك مُغدِقاً نعمائه.. إنّنا بالليل لمغمورون، وبالنهار لمتوارون فالظلم مُركَّب العيون يتحين فرصةَ القبض علينا لينهينا بحقده وعدوانيته المقيتة.. فقط ما لم استطع ان احققه لكِ هو انك لم تحبلي.. كنت آمل أنْ أبصر بطنك يكبر ونرى بعد اشهر ولدَنا يظهر الى الحياة. كنتُ سأسمّيه عقيل؛ إذ فيه أبصر العقل الذي تتحلّين به والبساطة التي من شيمِك.. لكن لا ضير ستنتهي الغُمَّة ونعود نعيش بما نرغب، ونلد ما نرغب... انتظريني سآتيك قريباً"

وانتظرت!

وكان يوماً مسروقاً من معطف القدر افضى به الانتظار.

فبعد منتصف ليل ذلك اليوم استيقظتُ على صوتِ

دوران المفتاح في قفل الباب الرئيس ودخوله متنكّراً بدشداشةٍ وقد لفَّ رأسه بيشماغ. كان طويل اللحية ضامر الوجه.. جائعاً حدسته وخائراً وجزعاً. ولولا بريق التحدّي والتحمّل المتوهج في عينيه لقلت جاء منخذلاً.. سريعاً اعددت له الحمّام ثم هرعت اعمل له عشاءً سريعاً من البيض المقلي وشرائح طماطة ورأس بطاطا بقي من عشائي. اقترحتُ عليه الهرب الى بيروت؛ هناك حيث ينأى عن عسفهم، ويستطيع على البعد مواصلة نضاله ضد ما ينوي الرئيس الاهوج فعله ليدخل البلاد في هول حرب توافقتُ ورأي وليد في كونها حرب ستغتال شباب الوطن وتنتهك كبرياءه، وتدمّر اقتصاده. ويدخل الويل كل بيت؛ وتتعالى من نوافذ غرف البيوت أنّات الامهات والزوجات والاخوات الثكالى، ويعلو صوت الجزع، ثم الرضوخ لمشيئة القدر مندفِعاً من أفواه الآباء وهي تردد "إنّا للّه وإنا اليه راجعون" كصبرٍ على المصائب، وتوقٍ إلى الجلد والتحمّل رغمَ عُظمِ البلاء وفداحةِ الخسائر.

الاقدارُ حقيرةٌ بينما ضميرُه كبياضِ الثلج الناصع. يدُه سمحةٌ مطواعةٌ كريمةٌ بينما يدُ الزمن مغلولةٌ تضمر

في طواياها ارتالٌ من المفاجآت الرمادية. "لا تبتأسوا ايها المنفيون" كان يقول.. وكثيراً ما ردد:"لا تضجروا. فللشمسِ طلعةٌ وللنورِ ميقات".

كانت دواخلُه سهولاً ووديان وبساتين فاكهة؛ كان قلبُه ساقيةً وماءً نميراً. دنا الشعرُ من ذاكرته فاغدق عليها فيوضَ البوح مدراراً كالمطر وأغرقها بالقصائد... اذكر قال لي مرةً: "ترين تلك النجمة الراقصة تعج باللألاء، وتضج بالوهج؟.. تشاهدين ما حولها من عتمةٍ وما يتربَّص بها من ديجور؟.. هكذا تخيلتكِ أو هذا ما فسَّرتُه فيكِ وأوحى لي قلبي عنك. لهذا اخترتُك؛ وكنتِ كَمَن ترجَمَ قلبي، كَمَن قرأ ارجوزةً عصيةً وحفظَها عن ظهرِ قلب. أستعير بيت ابي بكر الهذلي لأقول لكِ:" وإنّي لتعروني لذكراكِ هزَّةٌ // كما انتفضَ العصفورُ بللَّهُ القطرُ "تمنيت هذا البيت للمتنبي لتكتملَ حافظةُ حبّي له."

تقدَّمني وابتسمت.. مددتُ كفاً للعهدِ ونظرةً لعَقدٍ روحي لا ينفصم.

ابتسمتُ، بل ضحكتُ في اعماقي. اردتُ أنْ أقول

حتى وانتَ تتكلّم في الحوار تسرق قلبي.

رأى أنَّ الحرب التي اندلعت بين البلدين الجارين، وكما حدس وقوعَها، ما كانت لتحصل لو أنَّ العقلَ حضر، والنزعةَ البدويةَ او التطلّعَ الهمجيَ طُرِد من مملكةِ روح الرئيس الاهوج.. "ما كان لهذه الحرب المجنونة أنْ تشبَع وتنادي بالمزيد -كان يردِّد بجزعٍ وحماسةِ رجلٍ رافض وثائر -ما كان للشمسِ أنْ تبكي والليل يستحيل مواويلَ للفجيعة والرثاء".. وكنتُ أجد في كلامِه صِدقاً وموضوعيةً.

مجاهرتُه برؤيتِه خلقت له الاعداءَ والعيون الذئبية توحَّدت وخطَّطت وتراصفت للانتقام منه.

وكان التخطيط ينتظر ساعة الصفر لتحويله إلى واقع وفعل.

وجاءت الاشارة.

وجاء مروره في طريق عودته من زيارة جارٍ لنا جيء به جريحاً من جبهة المحمرة.. اقتربت منه سيارةُ حِمل كبيرة وراحت تضيِّق عليه. ولم تنفع محاولاته في زيادة سرعة

سيارته وتفادي ضغط السيارة الكبيرة التي بدت كديناصور إذْ صارت تزيد من تضييقها فاضطر للصعود على الرصيف توخيّاً النجاة، لكنَّ السيارة راحت تنقلب مرّة فمرات، وسيارة الحمل تأخذ طريقها إلى أمام كأنَّ الأمرَ لا يعنيها. ولم ينفع تحديقُ الناسِ في الحصول على رقمِها؛ فقد كانت بلا ارقام، وكان وليد مهشَّمَ الرأس مقطوعَ الأنفاس.. جيءَ به متقطّع الاوصالِ متهتِّك الاعضاء؛ وسيارته مُحطَّمة بشكلٍ شبه كلي كأنَّها رُميت من قِمةِ جبل الى وادٍ سحيق.

ولم تمر ثلاثةُ أيام، هي أيامُ عزاء الفاتحة حتى شنَّت السلطةُ حملةَ اعتقالٍ لأصدقاء وليد. ووجد شقيق وليد أنَّ عليَّ التواري لئلا أقع تحتَ طائلةِ الموت أيضاً فلا بدَّ من ورود اسمي في قائمةِ الاعتقالات وانتزاع اعترافات تخصّه كوني زوجة تعرف الكثير من تحركاته ولقاءاته."

كان النصف الثاني للشريط الأخير يضم وجودها في السماوة.. إذ بعد أن تجشأت، وكتمت عبرةً تلت نحيباً زادَ على الخمس دقائق وتمخّط واستدراك حال

من اجل ان يأتي الصوت واضحاً؛ واصلت تقول:

"وها أنا في السماوة منذ أربعة عشر عاماً، ولم يبقَ لي إلا العودة الى البصرة، عشِّي القديم ومأواي الأليف... بعد هذه الأعوام لم يبقَ غيرُ جسدٍ عليل ينتظر خلاصَ الروح منه، فقد عانت هذه الروح الكثير من الألمِ والضيمِ والجزعِ مثلما احتشد هو بالتهالك والوهن والعلل.. وها أنا اجتهد بتسجيل ذكرياتي التي لا أُريد لها ان تندثر في ذاكرتي وتموت.. اريدها تستحيل كلماتٍ تُدوَّن على الورق تحكي عسفَ الانسان وبطشِه وغيظِه وبغضِه في آن؛ تقول التجنّي الذي يرتكبه بحقِّ أخيه الانسان مُستمتِعاً بألمِهِ وصراخهِ ولوعته؛ مُحتفياً بسحقِه ومحقِه وإزالته من الوجود لا لشيء إلا لمجرد لذاذةٍ تشفّي أو عدم قبول رأي.. لذاذة قميئة نهَت عنها الاديان السماوية وحذرت منها الشرائع والقوانين الوضعية.

أنا الآن في السماوة ولم يبق لي غير وقت قصير حتى ارحل عائدة إلى البصرة، مُحمّلة بشوق خرافي لا يُضاهى.. سأعود بحثاً عن انفاسِ طفولةٍ تركتها هناك وصويحبات لا ادري اين اصبحن.. ابحث عن انفاسِ وليد

الهائمة تبحث عمَّن قتله، وعمّن يُلئِم جروحي مع علمي أنْ لا شفاءَ مما يتركُه الزمن ويكرِّسُه القدر.

أنا الآن في السماوة وقد تهافتت الاعوام وحلَّ محلَّها شريطُ ذكرى انتظر يوماً من يُفرغه على ورقِ الحقيقة. فحياتُنا تجاربٌ، والتجاربُ هَديٌ ناصع لمن يبغي الاستفادة وينال زهور الحِكَم؛ والحِكَمُ مقولاتٌ تخفي وراءها عوالمَ من الحيوات لأناس جعلهم القدر نماذج خاصة يطالعها القادم من الاجيال.. هكذا أرى.. وأنا الآن حيث اعيش الانهاك والتقهقر أجد أنَّ ما اقوله ليسجل باقة من الحكايات وسيرة حياة عسى مَن يعثر عليها مَخفية في الاشرطة التي أملأها هذي اللحظة احالتها الى كتاب.

أنا الآن في السماوة يأكلني الحنين وتتوسل روحي العودة الى البصرة بعدما غزتني جيوشُ الامراض المتعددة وارتني ضغطاً، وسكري، وضعفَ قلب، وخواءَ جسد، وهشاشةَ عِظام حتى بتُّ أرى الحياة تحاول التسلل هاربة من امام ناظِري وأضحيت أحنُّ الى أهلي. تلزمني العودة الى اهلي قبل ان يهاجمني الجاني المختلس فينقض على

بقايا ايامي وأموت هنا في هذا البيت الذي آواني ومنحني دفء الاستقرار في صقيع الخوف والهلع من هاجس القبض عليَّ وايداعي السجن، وقد أُقتَل مثلما قُتِل وليد.

بقي أن أقول تقدم لطلب يدي رجلان وانا هنا... كان الاول وبعد ثلاثة اعوام على وجودي كلَّف المؤجِّرة الطيبة التي أتتني ليلاً طالبة بنفسها أن أعدَّ شايا نشربه سويةً. وتلك حالةٍ لم تحصل من قبل.. فما كان يحصل هو ما ان تأتيني ضيفة حتى انهض لإعداد الشاي وتقديمه مع الكعك المحمَّص فما بالها الان تطلبه بنفسها.... احتسينا الشاي وأشفعته بعد قليل بمعجنات محشوّة بالتمر اشتريته ذلك اليوم في طريق عودتي من العمل.. وبين ضحكة من هنا جاءت على اثر نكتة اطلقتها ونادرة من هناك حصلت لواحدةٍ من الجارات اباحت لي: جئتك بناء على رجاء وطلب وتضرّع من حسين ابن العلوية المضمد الصحي في مستشفى الثوار لطلب يدك. ولكونه شاب خجول ويخشى تبعات الرفض لو انه بعث بأمه وجارته لطلب يدك لذلك كلفني لأكون صلة وصل في طرح الطلب. علماً انه مستعد لتقديم ما تطلبين وما تأمرين... وهو الآن ينتظر الرد على نار... تلك

اللحظة طرقَ وليد بابَ ذهولي.. طرقَ وسمعتُ همسَه يدعوني للتمشّي أمامه كلما اختلينا في ساعات الليل الهادىء ووجد الرغبة الجارفة في اشباع عينيه بفاكهة جسدي فأروح أتعرى وأخطو فنكون بذلك كمن يعيشون طقساً خرافياً اعجازياً.. وها هي المؤجّرة الطيبة تنقل رغبة حسين ابن العلوية فماذا أقول لها ، وبأيِّ كلام ترد.. تُراه عدلا أنْ أتنكَّر لحبِّ وليد ، وقلبِ وليد من أجل عاطفة أرَّختها بتاريخ مقتله؟.. أيُعقل بعد انامل وليد تأتي انامل اخرى لتسوح في ملكيته وارثه؟!.. ثمَ ماذا يفعل هذا المتقدِّم المسكين بجسدٍ هو عبارة عن هشيمٍ يخفيه ثوبٌ واهٍ؟.... مع الحديث المقرون بالود وتغزل المرأة الطيبة بجسدي اليافع ـ حسب قولها ـ وقوامي الذي كنخلة برحي تمرها من ثمار الجنة اعلنتُ رفضي باعتذار يليق بقوة شخصيتي وعظم ثقتي بنفسي..... وكانت الخطوبة الثانية تمَّت عندما اقدم الاستاذ شاكر وقد صارحني بنفسه ان يزفني لأخيه الذي تسرَّح من الجيش حديثاً ولا يكبرني الا بثلاث سنوات.. وشاب بهذا العمر لابد وانَّ يخلق سعادة وارفة ويبغي بناء عشٍّ دافىء لنا... اخذ من خاطري وافهمني انه يعلم انني ارملة من رجل مناضل اغتيل يوماً غيلةً وغدراً؛ والزواج بهذه

الحالة لا ضير فيه ولا عيب. وافقتُه على كل ما قال، لكنّي افهمته أنْ لا رجل سأسمح له أن يلمسَ بطرفِ اصبعه جسدي، وأنَّ العيش بسعادة تتطلَّبه وجودُ روحٍ تتقبَّل وقلبٌ يفتح ابوابه فكيف اذا بالروحِ ميتة والقلب تحجَّرت ابوابه؟... عندها ادرك الاستاذ شاكر عُظمَ وفائي لزوجي القتيل؛ وما بعد ذلك لن تجدي اية محاولة عن ثنيٍّ والوصول إلى محطة قبولي.

(٩)

الحياة تغيرت.. والنظام تهاوى كورقٍ يابس وسقط في وحل لعنة التاريخ.

الحنين جارف، والرغبة في أنْ اكون بين آجرات بيتنا في مناوي باشا.. هناك اريدُ تكريس أيامي المتبقية في اشباع نظري من غرفهِ وحوشهِ؛ اسمع تغريدَ البلبل على الدوام، ودوّامة العصافير المتهافتة في النخلة التي زرعتها، ومن اطراف اغصان شجرةِ السدر المطلة علينا من بيت الجيران والتي يثيرها التغريد فتترك الشجرة لتتجمع على درابزين السطح في حمى الاستجابة لحديث

البلبل بسيل من الفوضى المُعبِّرة عن سعادتِها وتحاورها بلغة الطيور.. يجب الطلب من المؤجرة الحنونة كي تعينني على الوصول الى الكراج والركوب في سيارة تتوجَّه الى البصرة.. سيكون يوم غدٍ آخر يوم اعيشه في السماوة.. ساترك لها ما موجود في البيت هِبةً، فقد كانت عطوفةً ورحيمةً معي.

غداً، إذاً، سأكون في البصرة؛ مدينتي السمراء الجميلة، بصرتي الرافلة دوماً على ايقاع بساطتها وطيب اهلها الجنوبيين حدَّ الذوبان في رقَّةِ اصواتِهم ودفءِ معشرِهم. تتباهى بأسواقها وحدائقها وغاباتها؛ تتباهى بكورنيشها وبالسياب الذي كان لنا حامياً وحارساً ساعات نجلس في حوار مع شط العرب.. كلُّ من زارَ البصرة لابدَّ أنْ يمرَّ بسوق حنا الشيخ وسوق الهنود وشارع الكويت؛ لابد أنْ يأخذ طريقه الى غابات الاثل وحديقة الامة وحدائق الخورة والنرجسية بامتداد اراضيها الخضراء وهي تتباهى بالبناعة والالق؛ لابد من اشباع ذائقته بقصرِ باشا عيان وقصرِ النقيب؛ لابد أن يُشبع نظره من دير راهبات التقدمة اللاتينيين وبريهه

الهاشمي والكنائس والاديرة المنتشرة في المنطقة حيث البهرجة المسيحية تتوهج بعائلات تتوجّه صباحات الأحاد الى الكنائس حيث يرتدى الرجال اترف الملابس والنساء أجمل الفساتين مستعدّينَ ليوم طقسي ديني حافل بالإقبال على الحياة وتوزيع البسمات ولطافة متميزة يوصي بها السيد المسيح.. كنّا نرى الأسر في ساعات حبورِهم وانشراحِهم يرفعون رؤوسهم الى السماء يتضرعون للرب أنْ يهبهم السلام الدائم؛ وليس غير السلام ما ينشدون. فبهِ يجسِّدون الحياةَ الحرّة، وبه يعيش الناس في وئام.

آه، يا إلهي! ما هذا؟!

تمتلىء الغرفة الآن بعطر أعرفه.. عطرٌ فيه من الدَّفَق ما لا اقدر على مقاومته.. من أرى؟.. من هذه التي أمامي؟! يا إلهي!

البصرةُ تدخلُ عليَّ؛ تقتحمني بعباءتِها المهفهفة وسمرتِها المليحة، بشعرِها المنتفض بلون حنائي اكتسبته من حنّة الفاو وضوع نارنج بساتين ابو الخصيب.. تبتسم لي بأسنانها العاجيّة الزاهية وشفتيها الممتلئتين بديرم

أحمر مَسروق من لونِ الدم.

جاءت لتقول أنَّ وليد لم يمُت، بل لن يموت.. وليد يعيش في ذاكرة الاجيال، يعود الى جيل جديد يتَّخذ من كلماته هدايةً ليومِهم ومسيرتهم. يرون فيه الرجل الذي لم يهادِن على المبادىء ولم يتخلَّ يوماً عن البصرةِ والعراق.. يستذكرون قوله "الاقدامُ صفةٌ من صفاتِ الشجعان شرط ان يتحلّوا برجاحةِ العقل وإلا كانوا حمقى".. كان وليد راجحَ العقل قويَّ الشكيمة، إذا أقدم كان شجاعاً يثير دهشتي في اتخاذ القرار ويروح يعمل على تطبيقه بثقةِ الذين يرون النتائجَ وقد تجلَّت واضحةَ الصورةِ تنتظر مَن يقطفها لتكون هدايةَ النجاح.

قالت: من الأَولى العودةَ معي الى اهلِك.. امُّك صارت عجوزاً واخوك تزوَّج ولديه الآن بنت جميلة لها سبعة اعوام اسمُها حَمامة. لقد تخلّصنا من النظام الدموي، فلا ضرورة بعد ذلك البقاء في السماوة.

قلت: لكني عليلةٌ لا قدرةَ لي على السير، أمّا شوقي لأهلي فلا حدود له...

قالت: سأقضي الليلةَ معكِ!.. فليس عدلاً أن اتركك

وانتِ بهذا الحال...

وكانت عند كلمتِها. اذ استحالت ليلة مسروقة من حنوِّ التاريخ وصفحاته المشرقة.. قرأت لي العديد من قصائد وليد يتغنى بشط العرب والخورة والخندق، يذكر عتبة بن غزوان والاصمعي والفراهيدي والسياب.. يمر على العشار والسيمر ومحلة الأرمن وكوت الحاج والمحركة والقبلة وعز الدين والاصمعي؛ بريهي والعباسية، المجموعي والصفاة والمشراق ومناوي باشا. قالت مناوي باشا محلتكِ في شوق اليك مثلما أنتِ في ولهٍ اليها. حدَّثتُها عن ألمِ الفراق وثقلِ الجوى؛ بينما حدثتني عمّا لاقاه البصريون من جور السلطات إذْ ازدادت مع الحرب شراسةً وتفاقمت عدوانيةً طالت الجميع، وفرَّ ما يزيد عن نصف السكان جراء جنونه وحماقته في حرب لم تُبقِ ولم تَذر... حدَّثتُها عن حبِّ الناسِ لي في هذا الزقاق وما جاوره من أزقة حتى انهم اسموه زقاق بيت العمّة تيمّناً بي. طفح على وجهها البِّشر وبدت مزهوةً قبل انْ تقول: هكذا نحن البصريين طيبون وودودون، أنقياء ومحط حبِّ الجميع لنا مع أنَّ الكثير ممن جاء إلينا

كمسؤولين حكوميين استغلوا طيبنا ووداعتنا فارهقونا في عسفِهم وتجنيّهم وظلمِهم.

عندما طالعتني وكان الليلُ لمّا يزل طويلاً اقترحت ادخالي الى الحمام. هناك خلعَت ملابسي وراحت تدلق الماءَ وتصوبنني تمررُّ الليفةَ المغموسةَ بالصابون على جسدي الواهن الهزيل. ومع كل تمريرة على عضو من اعضائي كنت اسمعها تنشج وتكتم بكاءً مرّاً لمشاهدتي بهذا الهزال.. قالت جلبتَ معي كيساً من حنّة الفاو أخضِّب به شعرِك، يا لشعركِ الجميل المنسرح الطويل، ولو لوقتٍ قصير حتى تعودين وقد أخفت الصبغة الحمراء الشيب الغزير، كم كان الزمنُ قاسياً عليكِ!.. شممتُ رائحةَ القرنفل المسحوق مع طحين الحنّة فانفتح ثغر الامل وتواربت ابواب التفاؤل بالقادم رغم أنَّ القلب في وجع ودفق الدماء الثقيلة تضرب صدغيه فتؤلمه.

الاستحمام لنصف ساعة وبكفوفِ البصرة الحانية اودع في روحي رسالة الوصول فلن أموت هذه الليلة، وغداً وكما وعدتني المؤجرة الرحيمة ستوصلني الى الكراج للعودة من هناك اليك.. ولكن قبل ذلك سأطلقُ

البلبل الذي بمثابةِ روحي.. سأطلبُ منه الطيران إلى حيث يتوسَّد وليد الثرى ليحمل رسالةَ قدومي القريب إليه.. وأُلقي آخرَ نظرةٍ على النخلة التي تعالت واعطتني لأكثر من سبع سنوات متتالية ثمرها البرحي أطيب تمور بصرتنا النجيبة."

بالانتهاء من هذا الكلام كان الشريط الاخير على وشك الانتهاء.. ما بقي منه فقط قصائد قصيرة لعلها لوليد أو جاء كهذيان قرأتها بلسانٍ متعثّر كأنها وصلت حدَّ الارهاق أو كمن اوشكت واكلها النعاس فلم تتمكن من قوله واضحاً.

بانتهاء التدوين كانت الساعة بلغت الواحدةَ ليلاً.

نهض حزين من مكانه وقد شعر بأنه أدَّى واجباً لحمامة بينما أحسَّت حمامة بإنجاز مهمَّةٍ كانت ستطول لولا مساهمته معها.

توسَّلت إليه البقاء لعملِ وجبةِ عشاءٍ خفيفة يتناولانها سويةً وفنجاني قهوة يحتسيانه معاً. وجدَ (هو) اعلانَ قبوله من مرضاتِها وسرورِها والوقوف الى جانبها في محنتها ـ لاسيما وانَّ العمّة ذكَرتها على لسان البصرة

حين زارتها وافضت بما في سريرتها لتزرع الطمأنينة في حقل شوقها لكل خبر يخص الاهل، ووجدت (هي) في التعاون معها ومواساتها دليل حبّ حزين لها فاقتربت منه ولم تترك فضاءً من الشعور التهجسي او حالة توجس من سلوك قد لا يرضيها. لذا تناول العشاء بسرورٍ طاغٍ كانت خلال اعداده تتحرك بنشاط لم تؤثر عليه ساعات الليل المتأخرة ولم يدب النعاس تلك الساعة الى عينيها. كانت اكثر من نشاطِ نحلة] في أوجِ واجبها.. تقمَّصَت روحَ عمّتها فتحولت لمخلوقةٍ تهفو له، تماماً كما هفت مريم لوليد.. شعرت بأنَّها تركضُ وراءه للحاق به، وانها لابد أنْ تصرف معه وقتاً اكثر.. القصائد التي ضمتها مجموعته الشعرية قالت في سرها تلك اللحظة انها موجهة لي، مع انه كتبها قبل أن يراها قطعاً، أنا مَن يقصدني بالجنان الذي تحتويه القصائد، وتكاد لا توجد قصيدة الا وحضرت الجنان في اكثر من موقع، في اكبر مساحة من التصوير والبوح.

وهما يحتسيان القهوة قرَّبت كرسيها من كرسيه وبديا على وشك الالتصاق. ذلك أسعدَ حزين؛ ووجد في

الحركة بادرةَ توادٍّ وسؤددٍ جميلين. قرأ في عينيها شوقاً فسَّره محاكاة لشوق عمتها لوليد؛ بل وتماهي بين مشاعرهن تجاههما.. لذا سمح لصدره ان يتقبل رأسها الذي مال لتستقر عليه وهي تهمس: "حزين.. لكم أذهلتني كلماتك! لكم اغرقتني صورك الشعرية وانا ابحث عمّن يواسيني في وحدتي هنا في هذا البيت الذي جئت لاستئجاره بقصد تحقيق مراد عمّتي واستخراج المسجل والشريط من الكوَّة التي احكمت اغلاقها وتمويهها بطبقة من الجص بحيث كان من المستحيل على احد اكتشافها إن لم يتوجّه اليها بمعرفة مسبقة مع أنَّ البيت استؤجر لعديد العائلات بعدها.. كانت مجموعتك الشعرية التي التهمتُ قصائدها في ليلة واحدة وصارت قراءتي لها باستمرار دون شبع ترياقاً لجرحي العظيم الذي خلَّفته لي عمتي بعد رحيلها. هذا الجرح الذي خشيت اندماله وشفاءه فانكث عهداً قطعته لها بأني سأفعل مهما كانت التبعات ومهما تكالبت الصعوبات.

بوحُها الصادق دفعه لاحتضانها وجعلها تلتصق به..

ارفـق رأسـها بقـوة علـى صـدره الـذي كشـفت فتحـة القمـيص عريـه وتـرك لشـعرها الهطـول يضـمخ عنقـه ويصـطاد الرائحـة المنبثـة مـن مفـارق الشَّـعر.. همـس هـو الآخر بما ينُم عن عتابٍ لألمٍ عانى منه وجفاءٍ لم يكن يستحقُّه:

-لـماذا كنـتِ تصـدينَني يـا حمامـة، ولم تكشـفي ولعَكِ بي وعظمَ لهفتك إليَّ؟ لماذا تجنبتني وصددتني مع أنَّ الجنونَ والهوس اقتحما مملكتك العاطفية؛ وذلك ما كنت أحدسه كشاعر، واترجمه كمحب؟

اغرقـت وجههـا، هـذه المـرّة هـي، في شـعر صـدره واستنشقت روحه قبل أن تجيب:

-كنتُ أنـا كعمتي، وكنتَ أنت كوليد.. هفت عمـتي لوليـد واختارتـه دربـاً. صـارعت وقاومـت ودعمـت وضـحت فقتـل هـو، وتـوارت هـي هاربـة مـن بطشـهم وحقدهم وضغينتهم. لذلك فكَّرت ألا أخوض تجربتَها، ولا أجعلـك تسـلك سـلوكَ وليـد فيكـون مصـيرُك كمصيره، ومآلي كمآلِها.

توقفـت عـن الهمـس؛ وقـد ارادت دعـمَ كلامِهـا

بالجدّية:" لولا سقوط النظام بعد الاعوام الطويلة التي مرَّت لكان سرُّ المسجِّل والاشرطة لَّما يزل مجهولاً وغير مكتشف، ولِما كُنَّا نجلس سوية لندوِّن روحَ عمتي تسكبه على الورق؛ لكن الحمد للّه. لقد تمَّ ما ارادت، وانتهى على ما أَرَدت. لقد تربَّصت قوى الشر بسعادتها فأنهت حياة وليد وجعلتها متشرِّدة تخشى سلطةً قمعيةً احالت حلمَها الجميل كابوساً."

قبّل رأسَها؛ وكان البلبلُ يتابع بعينيه الخرزيتين اللتين تغالبان النومَ مَشهدَ الالتصاق، ولأول مرَّ يشعر أنّه بحاجة الى قُبلةٍ تؤرِّخ علاقتَهما في حبٍّ كانا فيه يعادلان حبَّ مريم ووليد.. قال لها: لكأنَّنا استنسخنا تجربةَ عمَّتَكِ ووليد.

"نعم..!" همست بشوق، وقد رحلت بعيداً بخيالِها والصقت رأسَها على صدره ودَعته بحركةِ جسدِها الى ضمَّها اليه أكثر فأكثر:

"نعم لكأننا مريم ووليد فعلاً!"

غرقا في بحر الهيام؛ والغزالة التي كانت مفردةَ الولهِ لديه هي الآن في فيوضِه عطشى تبغي الرواء. فالعطشُ

قاتل، والبيداءُ تحتاج لأنيس؛ والأنيس يقف على أعتاب الواحة يناشدها بالرضا ويدعوها للرواء.. يقول أنا حزين، وأنتِ حمامة.. كلانا بحاجةٍ للآخر. فالحمامةُ تنتظر من يناجيها لتمارسَ الهديل، والحزينُ ينتظرُ الهديلَ ليُثار شَجنُه فيكتبُ قصيدةَ القلب الصادقة. فما يخرجُ من القلبِ بصدقٍ يدخل القلوبِ الصادقةِ في مراميها واغراضها ورغباتها بيسرٍ وتقبُّلٍ وترحاب.

جعل رأسَه على رأسِها هذه المرّة بينما تركَ لأصابعِه التغلغل بين طيّات شعرِها أو تشرع بحركة تمسيد الجيدِ وبثِّ الحنانِ بأنامله التي أرادَها حريراً حين تمر.. يروح الاثنان في غفوةٍ طويلةٍ شرعت فيها حمامة تُبدِّد التعبَ والجهدَ والارهاقَ والتفكيرَ الطويل في مهمّةٍ كانت تخشى عدم انجازِها فينطفئ حلمُها الكبير في تحقيقِ حلمِ عمَّتِها الابدي.

ومن جانبه وجدَ حزين أنَّ ملاحقته لحمامة لأيام واسابيع لها ما يبررها. ولم يكن القلب على خطأ. لا، ولا كان بثُّ شكواه لصديقه الرسّام نوعاً من المذلّة المطيحة بكبريائه وكرامته وإن هو كثيراً ما ردَّدَ مع

نفسه " ولولا الهوى ما ذُلَّ في الارضِ عاشقٌ / ولكنْ عزيزُ العاشقين ذليلُ ". بيت تلقَّنه من مدرسِ اللغة العربية عندما كان في المرحلةِ المتوسطة يُلقيه الاستاذ بطريقةٍ تمثيلية فيها من اللواعجِ والألمِ ما جعلَ أغلبَ الطلبة، وهو واحدٌ منهم، يحفظونه من أول سماعهم له.

كان كل ذلك مُسجَّلاً في سجِّلات الغيب، ومحفوراً على صوانِ تاريخ سيكشفه يوماً مطبوعاً على ورقٍ وبين دفَّتي كتاب.

همسَ يُطلِعُها على مجموعةٍ شعريةٍ كاملة كتبها بإيحاءٍ من تعلُّقِه بها وحبّهِ لها. مجموعة كانت بامتياز مُكرَّسة لها؛ لذا قال: سأجعل عنوانُها "حمامة".

سعُدت بما فاهَ به؛ لكنَّها قالت: انَّه عنوانٌ ناقص. اذا أردت له الاكتمال والتأثير في ذوق القارىء فاجعله "حمامةُ حزين".

ولم يخالفُها الرأي. بل وجدَ في الاقتراح مَدخلاً لتواصلٍ حياتي سترسمُه الايام اقتراناً روحياً وجسدياً.

بعد انتصاف الليل ودَّعته حمامة على أمل ترتيب

الاوراق واعادة كتابة ما دونوه ليكون مسودة نهائية يمكن تقديمها للنشر.

ترك زقاق بيت العمّة والازقّة الاخرى المتداخلة خارجاً الى الشارع.. هناك اتخذ الطريق الذي صار يسلكه كالعادة بعد خروجه من بيت حمامة.. كان الليلُ يُفشي صمتَه في المكان، وكان هو يدنو من الكورنيش المُضاء بإنارةٍ تحتفي به كشارع بذلت دوائرُ البلدية والمرورُ الجهد الكبير حتى يكون احدى الرئات التي يتنفس منها المواطن كي يهنأ بتجوالٍ جميل.

دخل الكورنيش فلاحت على البعدِ مقهى الرصيف. شاهد عدداً من الروّاد يتَّخذون أماكنَ تمنحهم الألفة سواء في الحديث او التأمل.

لم يعبر الشارع صوب المقهى بل اتَّخذ الطريقَ المطلَّ على الفرات فلم يكن تلك اللحظة كما اعتاد بعد مفارقتها بحاجة الى ارتشاف شاي او كباتشينو ترطِّب جفاف بلعومه وتدفىء دواخله فقد احتسى القهوةَ مع حمامة، وارتشف من شهدِ روحها ما يروي قلبَه لزمن طويل.. إنَّ قبلة واحدة من شفتي حبيب لرواءٍ لا حدود له؛

وإنَّ ابتسامة رضا تدلقُها رموش عاشق لهوَ الابحار في محيطاتِ البهاءِ والجذل.

وكانت حمامة في غرفتِها يجمعُها الكرسي بجلسةٍ سيصرخ لها الرسام إن رآها بتلك الحركة لتكون موديلاً للوحةِ فتاةٍ تمشط شعرها، يناهض بها لوحة ديغاس في انطباعيته الساحرة.. تنثر شعرَها وتسرِّحه بمشطٍ تعالت نغمتُه ممتلكاً قدرةَ الحركةِ حتى الصباح؛ ما لبثت أنْ نهضت تخفِّف من ثيابها لتبقى بثوب شفّاف ارادت، من خلال ابقائه قريناً لقوامِها ، أنْ تترجِم لغةَ جسدِها بحضوره.. استدارت بحركة دائرية، تاركةً للمرآة اختبارَ قدرتِها على ارضاء حزين بجسد تريد ان يصبح يوماً قصيدةَ حبِّهما الخالدة. لقد انتهت المهمّة التي اخذت منها الاعوام وانتهى حمل الأمانة الثقيلة ثقل الجبال.. شعرت أنها، الآن، خفيفةً كغيمة بيضاء تضحك في ساعة ضحى، وسعيدةً كفراشة شبعت من الرحيق ونامت على نصاعةِ خدٍّ وردةٍ حمراء. مثلما ساورها احساس امتلاكها حريةَ الحبِّ ومنحِ قلبها لحزين هبةً بلا ثمن، إلا مِن مصاحبتِه لها طوال العمر...

عادت اليها ذكرى رواية قرأتها عن فتاةٍ وقفت امام نافذة حبيبها فتعرَّت وسطَ فيضِ عتمة تسود غرفته، لا لكي تغريه اغراءَ مجونٍ مقصود انَّما لتمنحه شيئاً من طُهرِها ليكون عهداً على نقاء حبِّها له وانتظار عودته من رحلة لم يكونا يعرفان حيان نهايتها.

اتَّخذ حزين على غيرِ عادته مدخلَ الجسر ليعبر الى الصوبِ الثاني، صوب القشلة.. لقد عزمَ اللحظة على تمثيلِ دورِ بطلِ رواية قرأها يوماً هو الآخر عن شابٍّ كان يعبر هذا الجسر الى الجانب الآخر ليلتقي حبيبته تحت ظل شجرة الكاليتوس ويطبع قبلة واحدة لا غير صارت سندَ عهدٍ على سرمديةِ حبِّهما وطهارتِه.

حين عاد حزين وحمامة تلك الليلة الى سريريهما ووضعا رأسيهما على الوسائد شعرا بنعماء الليل عليهما.. صار كلٌّ منهما يستعيد ما جرى مع الآخر القرين.. فناما تلك الليلة نوماً مسروقاً من اغفاءة الملائكة الرائحين في رحلةِ كرى قريباً من انفاس اللّٰه وهي تغدق عليهما العذوبةَ والرقّة والبهاء.

كان الليلُ حيياً معهما في نعمائه.

(١٠)

باكتمال تفريغ الاشرطة وتحويل الكلام الى كلمات اصبح لزاماً على حمامة وحزين ان يتوجَّها لطباعتِها في كتاب.. بات من الواجب والوفاء على حمامة الوفاء لعمِّتها بجعل الكتاب نموذجاً لسيرة حياة كان فيها الكفاحُ ديدنا والنضالُ من أجل الحرية وتقبل الآراء ورفض العسف مَسلكاً ودستوراً.

صباح اليوم التالي أول فعل أدَّته هو فتحها لباب القفص والامساك بالبلبل.. قبّلته بمنقاره ومررت اناملها بحنان على ريش رأس تُمسّده ثم بدفعة رقيقة اطلقته في فضاء الحوش؛ ثم طالعت النخلة الوارفة بسعفها والمكتنزة بعذوقها وخرجت..

التقت حزين عندَ رصيفِ الشارع وحسبما اتفقا في الليلة السابقة.

توجَّها الى كراج السيارات، صعدا الحافلة التي تقلهما الى بغداد.

هناك، وبعد المراجعة والمرور على المطابع والمكتبات

التي يحتويها شارع المتنبي وفي ساعة ظهيرة استطاعا تقديم مسودة كتاب عنوانه (الليل في نعمائه) ومعها قدم حزين مسودة مجموعة شعرية مشفوعة بصورةٍ لوحة انجزها صديقه الرسام لتكون صورةَ غلافٍ لها.

تم الاتفاق مع دار ستتولى الطباعة والنشر والتوزيع فوقعا العقدين وأُعطيا تاريخاً لاستلام الكتابين.

من بغداد أخذت حمامة القطار النازل الى البصرة؛ ودَّعها حزين في المحطة وآخر ما التقطته عيناه تلويحةَ كفٍّ حمامة من وراء الزجاجةِ المموهة بخضرةٍ شفّافة لعربة القطار؛ ثم انحدر خارجاً من المحطة باتجاه الكراج الذي لا يبعد غير مسافة قصيرة. دسَّ نفسَه بين الركابِ في الحافلة التي انطلقت بعد حين صوبَ السماوة. هنالك حيث سيهدي ممتلكات حمامة من عَفشٍ ومقتنيات إلى هيئة دعم المهجَّرين الذي افتتح قبل ايام ليتسلَّم العطايا تحت عنوان "جدار الرحمة".

افترقاً وفي رأسيهما تاريخٌ لبدءِ حياةٍ جديدة تعاهدا على أن يقضيانها مقرونةً بالشوق الدائم والتواد الخالد وتحقيق الحلم الخرافي الجميل.

ابتدأت مساء ٢٠ آذار ٢٠١٦

انتهت صباح ١٨ نيسان ٢٠١٦

NOVEL

THE NIGHT IN ITS PROSPERITY

ZAID AL-SHAHEED

بعدما دخلت حمامةُ البيتَ واحكمت اغلاقَ الباب من الداخل توجَّهت نحو غرفتها. رمت العباءةَ على السرير الخشبي وخلعت عن رأسها شالاً لم ترَ حاجةً له بل اجباراً على ارتدائه منذ أنْ تولَّت الاحزاب الدينية مقاليد تسيير البلد؛ ثم فكَّت ازرارَ بدلتِها الحابسة لجسدِها وتوجَّهت الى المرآة . أبعدت قرّاصة شعرها ووضعتها على قاعدة المرآة ثم نثرت الشعر على كتفيها.. راحت تتأمّل قوامَها؛ تُطالع تقاسيمَ وجهها؛ الحاجبين المقوسين كثيفي الشعر، الانف الدقيق، الغمّازتين وهما ترتكزان وسط الخدين، الشفتين المكتنزتين، ثم انتصاب الرقبة على كتفين برمانتي ذراعين متكورتين؛ فعادت اليها مغازلة اقرانها الشباب حين كانت تمر في الزقاق. خارجة إلى العشّار وقد بهرتهم باستدارة وجهها وتمايل قوامها غنجاً لا تتقصده.